
روايات مصرية للجيب
18
رجل المستحيل
د. نبيل فاروق
سلسلة الأعداد الخاصة
Looloo
www.dvd4arab.com
أنياب الأسد

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى ، يرمز إليه بالرمز (ن ـ 1) .. حرف (النون) ، يعنى أنه فئة نادرة ، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه ؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة ، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال ، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستٍّ لغات حيَّة ، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكُّر و(المكياج) ، وقيادة السيارات والطائرات ، وحتى الغواصات ، إلى جانب مهارات أخرى متعدِّدة .

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات ..

ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات الحربية ، لقب « رجل المستحيل » .

د. نبيل فاروق

1ـ مـرارة ..

لم يستطع (أحمد) شقيق (أدهم صبرى) ، كتمان دموعه الغزيرة ، التى انهمرت على وجهه فى حرارة ، وهو يلقى جسده على أقرب مقعد إليه ، بعد عودته مع (أدهم) ، من جنازة والدهما ، الذى لقى مصرعه غدرًا ، عندما اغتاله رجال (الموساد) فى (لندن) .

كانت جنازة مهيبة بحق ، بدأت فور وصول الجثمان الطاهر من (لندن) ، على متن طائرة خاصة ، تحمل شعار رياسة الجمهورية ، وتصدَّرها مندوب الرئيس ، ومدير المخابرات شخصيًّا ، وخلفهما عدد كبير من ضباط المخابرات ورجالها ، والرعيل الأوَّل لها ..

وعبر شوارع (القاهرة) ، سارت الجنازة فى صمت ، عكس مهابتها على الجميع ، فتوقَّف المارة على الجانبين فى صمت وخشوع ، مع رؤيتهم علم الجمهورية ، الذى يلتفت حول النعش ، وانضم بعضهم فى تلقائية إليها ، حتى راحت تكبر رويدًا رويدًا ، فلم تكد تصل إلى منطقة المقابر ، حتى كان المكان كله يكتظ بالبشر ، الذين رفعوا أيديهم بالدعاء للمتوفى بالرحمة والمغفرة ، دون أن يدرك معظمهم هويته ..

ووسط كل هذا المشهد المهيب ، سار (أدهم) وشقيقه الأكبر فى صمت ..

كانت الدموع تسيل من عينى (أحمد) ، الذى راح الرجال يواسونه ، ويربتون على كتفيه مهدئين ، فى حين ظل (أدهم) صامتًا جامدًا ، لم تذرف عيناه دمعة واحدة ، وإن شفت كل خلجة من خلجاته عن حزن عميق ، وألم بلا حدود ..

وفى منطقة المقابر ، كان (أحمد) يتلقى عزاء والده فى شبه انهيار ، فى حين كان (أدهم) قويًا متماسكًا ، يصافح المعزين فى حزم وقوة ، ويتمتم بكلمات خافتة ، ردًا على عبارات العزاء التقليدية ، حتى إن زميل والده (حسن) شعر بالقلق عليه ، فتحرك فى خفة ، حتى أصبح إلى جواره ، وهمس :

ـ ابكِ يا (أدهم) .. اترك لمشاعرك العنان .. إنه والدك ، ولن يلومك أحد .

صمت (أدهم) لحظة ، ثم التفت إليه ، قائلاً فى صوت عميق ، لا يتناسب حتى مع سنوات عمره القليلة :

ـ لم يحن الوقت بعد .

لم يدر (حسن) لماذا انقبض قلبه ، وهو يسمع هذا الجواب ؟!..

ولا لماذا سرت فى جسده قشعريرة باردة معه ؟!..

ربما لأنه شعر أن الجواب المقتضب يخفى خلفه الكثير ..

والكثير جدًا ..

جدًا ..

يخفى خلفه نيرانًا تستعر ، فى أعماق (أدهم) ..

فى أعمق أعماقه ..

نيران تلتهم كل خلية من خلاياه ..

بلا توقف ..

وبلا رحمة ..

وبلا هوادة ..

وبكل قلقه ، تطلع (حسن) إلى (أدهم) ، ولم ينبس ببنت شفة ..

كل ما جال بخاطره لحظتها هو أن (أدهم) الشاب يخطط لشىء ما ..

شىء لن يفصح عن نفسه ..

ليس الآن على الأقل ..

وعلى الرغم من دقة الموقف وصعوبته ، وكثرة المعزين والمواسين ، لم يستطع (حسن) إلقاء هذا الموقف خلف ظهره ..

لقد ظل يلتهم خلايا مخه ..

وأيضًا ، بلا رحمة ..

وعندما انتهت الجنازة ، كان يرغب فى سؤال (أدهم) عما يدور فى رأسه ..

عما يخطِّط له ..

وما يخفيه ..

ولكنه لم يفعل ..

لقد أشرف على أسلوب تربية (أدهم) يومًا بيوم ، ويعرف جيدًا كيف أنشأه والده ، وكيف ربّاه على الصبر ..

والصمت ..

والكتمان ..

وكان واثقًا من أنه مهما قال أو فعل ، أو حاول ، فلن يحصل من (أدهم) على كلمة .. كلمة واحدة ..

لذا ، فمن الأفضل أن يدّخر مجهوده ، وأن يكتم تساؤلاته فى أعماقه ..

وينتظر ..

وهذا ما فعله ..

لقد صافح (أحمد) و(أدهم) ، وربت على كتف كل منهما ، ولم يستطع منع دمعة حزن ، فرّت من عينيه لحظتها ، وهو يستعيد ، على الرغم منه ، تلك الذكرى البغيضة ..

ذكرى اغتيال (صبرى) فى قلب (لندن) ..

كان يغادر السفارة ، عندما حاصره قتلة (الموساد) ، وأطلقوا النار عليه ، فى قلب العاصمة البريطانية ..

وفى وضح النهار ..

وفى سابقة تعد الأولى من نوعها ، فى تاريخ صراع المخابرات العالمية ..

أو ربما هى الأولى والأخيرة ..

و ....

« عمى (حسن) .. من قتل أبى ؟!.. »

ألقى (أدهم) السؤال فجأة ، فى حزم وصرامة ، امتزجا بمرارة لا حدود لها ، على نحو جعل (حسن) ينظر إليه فى دهشة ، قبل أن يغمغم :

ـ هذا أمر غير شائع فى عالمنا يا (أدهم) ، و ....

قاطعه (أدهم) ، وقد تسللت لمحة غاضبة إلى صوته :

ـ من قتله ؟!

تطلَّع (حسن) إلى عينيه مباشرة ..

وقرأ الكثير ..

قرأ كل ما لقَّنه إياه والده ، منذ اعتبره مشروعه الخاص ؛ لإنتاج رجل المخابرات المثالى ، وهو بعد فى الثالثة من عمره ..

قرأ الصلابة ..

والقوة ..

والحزم ..

والعزم ..

والإرادة ..

والإصرار ..

قرأ ما أنبأه بأن (أدهم) لن يتراجع عن سؤاله ، وعن رغبته فى المعرفة ، مهما حاول الكل إخفاء الأمر ..

ومهما طال الأمر ..

ومهما طال الزمن ..

ولأنه يعتبر (أدهم) مثل ابنه تمامًا ، خاصة وأنه لم يتزوَّج أو ينجب ، فقد قرَّر تخفيف آلامه ، ومحو توتراته ، وتوفير وقته ، وأجابه فى اقتضاب :

ـ (الموساد) .

خُيِّل إليه أن يلمح دمعة ، تلتمع فى عينى (أدهم) ، ثم تتوارى فى سرعة ، خلف حاجز من الصلابة والإرادة ، وهو يسأله ، وقد اختنق صوته قليلاً :

ـ هل تيقنتم من هذا ؟!

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا ، فصمت (أدهم) لحظة ، وكأنه يحاول ابتلاع غصة فى حلقه ، قبل أن يسأل :

ـ من فعلها ؟!

هزَّ (حسن) رأسه نفيًا ، وأجاب فى خفوت :

ـ لم ينجح أى مندوب لنا ، ولم يصل عين من عيوننا ، إلى معرفة هذه المعلومة ، التى يحرص (الموساد) على إخفائها بشدة .. كل ما حدث هو أننا قد تعرَّفنا أحد القتلة ، الذين شاركوا فى عملية الاغتيال ، وتحرينا أمره ، فأدركنا أنه يعمل لحساب (الموساد) ، ولقد قمنا بتنشيط كل مندوبينا وعيوننا ، فى قلب (إسرائيل) ، ولكننا لم نتوصل إلا إلى معلومة واحدة ، تؤكد أن

(الموساد) وراء عملية الاغتيال ، وأنها قد تمت ، دون الرجوع إلى القادة ، وأن الذى أمر بتنفيذها يتعرَّض للمساءلة الآن .

غمغم (أدهم) ، فى لهجة اشتمَّ منها (حسن) رائحة صارمة :

- المفترض أن تعرُّضه للمساءلة وحده ، يكفى لكشف هويته .

هزَّ (حسن) رأسه نفيًا مرة أخرى ، وأجاب :

- ليس بهذه البساطة .. (الموساد) ليس جهازًا هينًا أو بسيطًا ، ولكنه ، والحق يقال ، أحد أقوى أجهزة المخابرات فى المنطقة ، وربما فى العالم أجمع ، وانتزاع سر من عمقه ، يعد أشبه بالمستحيل ، وخاصة إذا ما أرادوا بشدة إخفاءه .

وصمت لحظة ، ثم سأل فى قلق :

- ولكن لماذا تريد معرفة هوية المسئول عن العملية ؟!

لم يجب (أدهم) ، ولكن عيناه حملتا بريقاً عجيباً ، ضاعف القلق والتوتر فى قلب (حسن) ألف مرة ، فوضع يده على كتف (أدهم) ، قائلاً :

- اسمعنى جيدًا يا (أدهم) .. والدك رحمه الله كان زميل وصديق عمرى ، منذ كنا فى المرحلة الابتدائية ، وحتى تخرَّجنا كضباط فى الجيش ، والتحقنا بجهاز المخابرات العامة ، فور إنشائه ،

ولقد حضرت واقعة اغتياله بنفسى ، وعشت أسوأ لحظات عمرى كله ، وهو يحتضر أمام عينىَّ ، ولكن مهما كانت الأسباب ، ومهما كانت الوسيلة ، فما حدث لم يكن بهدف شخصى .. كان تطرفاً فى أداء العمل .. ولهذا فهم أيضًا يحاسبون من أصدر القرار ، والمسئول عن تنفيذه ، على الرغم من أن اغتيال (صبرى) يفيدهم كثيرًا ، ويختصر عدد العقول التى تواجههم .. أتعلم لماذا يا (أدهم) ؟!

واصل (أدهم) صمته ، وهو يتطلَّع إليه ، فأكمل فى حزم :

- لأنه فى عالمنا ، لا وجود للثأر أو الانتقام الشخصى .. عالمنا عالم أشبه بعالم رجال الأعمال .. الكل يتنازع ، ويتصارع ، ويسعى للتفوق على الآخرين ، والصعود فوقهم ، وحماية نفسه منهم فى الوقت ذاته ، وفى سبيل هذا ، قد يرتكب البعض أفعالاً مشينة ، تدخل أحيانًا فى باب الجريمة المنظَّمة ، وأحيانًا حتى فى باب الجريمة الحقيرة ، ولكن هذا لا يدفعهم للثأر من بعضهم البعض ، أو إضاعة الوقت فى التخطيط لعمليات انتقامية ، أو حتى تعريض عنصر مدرَّب للخطر ؛ لتنفيذ عملية ، لن يأتى من خلفها أى طائل .. هل تفهمنى يا (أدهم) ؟!

صمت (أدهم) لحظة ، وهو يتطلَّع إليه ، ثم أجاب فى اقتضاب :

- إننى أحاول .

استعاد ذهن (أدهم) كل هذه الأحداث ، وهو يقف عند باب منزله ، يراقب شقيقه المنهمك فى البكاء ، قبل أن يقول فجأة فى حزم :

ـ سأرحل .

التفت إليه (أحمد) فى دهشة مذعورة ، وهو يهتف :

ـ ترحل ؟!.. الآن ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم أكثر :

ـ سأسافر يا (أحمد) .

نهض (أحمد) ، وهو يسأله فى قلق عارم ، جفّف معه دموعه :

ـ تسافر ؟!.. إلى أين يا (أدهم) ؟!

صمت (أدهم) لحظة ، ثم أجاب بكل حزم وصرامة الدنيا :

ـ (إسرائيل) .

واتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما ..

بمنتهى الرعب .

* * *

عندما كان (أدهم) شابًا صغيرًا ، فى ريعان شبابه ، كانت (مصر) تعبر ذلك البرزخ ، بين نكسة يونيو 1967م ، والتى حقّق فيها جيش (إسرائيل) انتصارًا ساحقًا ، على جيوش ثلاث دول عربية ، واحتل ثلث مساحة (مصر) ، متمثلة فى (سيناء) ، ووصولاً إلى الضفة الشرقية لقناة (السويس) ، وبين حرب أكتوبر المجيدة ، التى سحقنا فيها الجيش الإسرائيلى ، وحطمنا الأسطورة التى نسجوها حوله ، بأنه لا يقهر ، وقهرنا أكبر مانع مائى ، وأقوى خط دفاعى فى التاريخ ..

وانتصرنا ..

وما بين هذا وذاك ، كانت الحياة تختلف فى (مصر) ، عما هى الآن ..

تختلف عسكريًا ..

واجتماعيًا ..

واقتصاديًا ..

وسياسيًا ..

تختلف حتى فى قواعد السفر خارج البلاد ، والذى لم يكن متاحًا ، إلا لفئات خاصة ، وتحت ظروف شديدة الدقة والصعوبة ..

أما مجرَّد ذكر اسم (إسرائيل) ، أو السفر إليها ، أو حتى الاقتراب منها ، فكان يكفى لإثارة الرعب والهلع ، فى قلب أشد الناس قوة وبأسًا ..

فما بالك بشقيق (أدهم) ، الذى كان أيامها يخطو خطواته الأولى ، فى كلية الطب ، وهو يسمع ما يقوله شقيقه ، الذى لم يتجاوز مرحلة دراسته الثانوية بعد .. فبكل الذهول ، حدَّق (أحمد) فى وجه (أدهم) ، غير مصدِّق لما سمعه ، قبل أن يتساءل ، فى لهجة حملت كل الهلع :

ـ (إسرائيل) ؟!

أجابه (أدهم) ، بمنتهى الحزم :

ـ نعم يا شقيقى .. إنك لم تخطئ السمع .. سأسافر إلى (إسرائيل) .. إلى قلب (إسرائيل) .

مرة أخرى ، حدَّق فيه (أحمد) ، بكل ذهوله واستنكاره ، وخُيِّل إليه أن شقيقه قد أصيب بجنون مؤقَّت ، من شدة صدمته فى وفاة والده ، خاصة وأنه قد ارتبط به كثيرًا ، فى الأعوام الأخيرة ..

ولكنه يعرف شقيقه (أدهم) جيدًا ..

يعرفه ، ويعرف أنه أقوى من هذا ..

أقوى بكثير ..

كثير جدًا ..

أقوى حتى من الصدمة ، والحزن والمرارة ..

ملامحه الصلبة الجامدة ، تشفّ عن أنه قد اتخذ بالفعل .. قرار لن يفصح عنه أبدًا ..

ولكن المشكلة أن قراره هذا يرتبط باسم ، يبدو أشبه بالشيطان الرجيم ، فى ذلك الزمن ، وتلك الفترة بالذات ..

اسم (إسرائيل) ..

وأى غضب ، أو صراخ ، أو ثورة ، لن تؤدى إلى شىء ..

أى شىء ..

الوسيلة الوحيدة هى المناقشة ..

ومحاولة الإقناع ..

وبجهد رهيب ، سيطر (أحمد) على أعصابه ، وهو يتجه نحو شقيقه (أدهم) ، قائلاً ، فى صوت أراده هادئاً ، ولكنه خرج ، على الرغم منه ، متوترًا :

- لا داعى للتهور يا (أدهم) .. مصرع والدنا أمر يتولاه جهاز مخابرات كامل ، فماذا يمكن أن نفعل نحن بشأنه ؟!

تطلَّع (أدهم) إليه فى صمت ، دون أن يجيب ، فتابع (أحمد) :

- ثم إن السفر إلى (إسرائيل) ليس بالأمر السهل أو الهيِّن .

غمغم (أدهم) فى حزم :

- إنه مستحيل !

شعر (أحمد) بالأمل ينتعش فى قلبه ، وهو يقول :

- بالضبط .. السفر خارج (مصر) أساسًا ليس بالأمر السهل ، فما بالك بدولة العدو .

غمغم (أدهم) فى مقت :

- الدولة ، التى يحتلها العدو .

أشار (أحمد) بيده ، قائلاً :

- بغض النظر عن هذا .. إنها دولة يحظر السفر إليها ، فى كل الأحوال ، ثم إن أحدًا لن يسمح لك بهذا .

رفع (أدهم) رأسه ، وهو يقول فى صرامة :

- لن أستأذن أحدًا .

هتف (أحمد) :

- بالتأكيد .

ثم حاول أن يخفض صوته ، وهو يضيف :

- الكل يعلم أن هذا مستحيل !.. وحتى لو أمكنك أن تفعله ، فستجد نفسك فى قلب عرين الأسد ، و ....

قاطعه (أدهم) فى حدة :

- أى أسد ؟!.. ما فعلوه يثبت أنهم فئران .. ضباع .. أو حتى ذئاب ، ولكن ليسوا أبدًا أسودًا .

تنهَّد (أحمد) فى عصبية ، وحاول مرة أخرى أن يتمالك أعصابه ، وهو يشير بيده ، قائلاً بنفس التوتر :

- بغض النظر عن هذا أيضًا .. إنك ما زلت فى مرحلة دراستك الثانوية ، ومهما كان ما لقنك إياه والدنا - رحمه الله - وما اكتسبته من مهارات ؛ فلن يَمكنك وحدك مواجهة دولة كاملة ، حتى ولو أصبحت فى قلب قلبها .. إنها دولة يا (أدهم) ، حتى ولو رفضنا هذا .. دولة لها جيش ، ونظم أمن ، وتوترات داخلية ، وحساسية مفرطة ، تجاه أية لمحة شك .. دولة لاترحم أحدًا ، مهما بلغت قيمته ؛ لأنها تتصوَّر أنها تقاتل من أجل وجودها وبقائها ، وليس من أجل هدف محدود .

تمتم (أدهم) ، وهو يشيح بوجهه :

ـ أعرف كل هذا .

تصوَّر (أحمد) أنه قد ربح معركته الكلامية ، فسأل فى لهفة :

ـ ألن تسافر إذن ؟!

شدَّ (أدهم) قامته ، وهو يجيب :

ـ بل إننى مُصِرٌّ على السفر .

احتقن وجه (أحمد) ، وشعر بالغضب يسرى فى عروقه ، فقال فى حدة :

ـ ومن قال إنك تستطيع هذا ؟!

قال (أدهم) فى حزم :

ـ سأحاول .

احتقن وجه (أحمد) أكثر ، وهو يهتف :

ـ حاول .

ثم أضاف فى حدة ، وهو يلوِّح بسبَّابته ، فى وجه (أدهم) :

ـ ولكنك لن تنجح .

شدَّ (أدهم) قامته ، وتطلَّع إليه فى حزم ، دون أن يجيب ، فلوَّح (أحمد) بذراعيه ، فى يأس غاضب ، ثم اندفع نحو حجرته ، وصفق بابها خلفه فى عنف ، تاركًا (أدهم) خلفه ، وملامحه تحمل كل المرارة ..

وكل الحزم ..

* * *

« خطأ .. »

صرخ مدير (الموساد) بالكلمة ، فى غضب هادر ، وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته فى قوة ، قبل أن يتابع ، وهو يلوِّح بسبَّابته ، فى وجه (دافيد جراهام) ، الذى يقف أمامه صامتًا :

ـ لقد ارتكبت فعلاً مشينًا ، يكفى لعزلك من صفوف (الموساد) .

قال (جراهام) ، فى شىء من الصرامة :

ـ لقد تخلَّصت من واحد ، من أقوى رجال المخابرات المصرية ، وأكثرهم إضرارًا بنا .

صاح مدير (الموساد) فى غضب :

ـ كل رجل مخابرات معاد ، يضر بأمن وسلامة (إسرائيل) ، ولكننا لن نجوب العالم ، لنقتل كل رجل مخابرات يعمل ضدنا .. هذا ليس أسلوب أجهزة المخابرات .

أجاب (جراهام) :

ـ كل شيء يمكن تطويره .

احتقن وجه مدير (الموساد) فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

ـ وكل تطوير ينبغى أن يخضع لدراسات دقيقة وطويلة يا (جراهام) ، وأن يقوم به فريق عمل ، ولا شخص يصدر قرارات منفردة ، ويطلب من دولته كلها تحمُّل نتيجة أخطائه .

أشار (جراهام) بيده ، وهو يقول :

ـ لقد تقدَّمت بمشروع إنشاء قسم خاص للاغتيالات .

اعتدل مدير (الموساد) ، وانعقد حاجباه ، وهو يتطلَّع إليه بنظرة مستنكرة ، ولكن (جراهام) تابع فى شيء من الصرامة :

ـ بقاء دولة (إسرائيل) يعتمد ، أكثر ما يعتمد ، على قهر وهزيمة كل الأنظمة العربية المحيطة بنا ، وسحق كل فكر يبرز داخلها ، وينادى بإزالتنا من الوجود ، وفى كثير من الأحيان ، ستواجهنا ألسنة عالية قوية ، لابد من إخراسها ، أيًا كان الثمن .

قال مدير (الموساد) فى حدة :

ـ بالاغتيال ؟!..

انعقد حاجبا (جراهام) ، وهو يجيب فى صرامة ، لم تتناسب مع فارق الرتب ، وبين مديره :

ـ بأية وسيلة كانت !.. المهم أن تبقى (إسرائيل) ، حتى لو أفنيناهم جميعًا ... بلا رحمة .

لنصف دقيقة كاملة ، ظلَّ المدير يحدِّق فى وجه (جراهام) ، ويدير كلماته فى رأسه ، قبل أن يعاود الجلوس خلف مكتبه ، وهو يقول ، فى صرامة افتعلها افتعالاً فى صعوبة :

ـ على كل الأحوال ، أنا مضطر لمساءلتك رسميًا ، بشأن إصدارك قرار الاغتيال ، وتنفيذه ، دون الرجوع إلى رؤسائك .

شدَّ (جراهام) قامته ، وهو يجيب :

ـ وأنا مستعد لهذا .

ثم مال على مدير (الموساد) ، مضيفًا :

ـ ولكن من وجهة نظرى ، أرى أن هذا خطأ كبير .. كبير للغاية .

وانعقد حاجبا مدير (الموساد) أكثر ..

ولم يفهم ..

أبدًا .

* * *

2ـ أصابع فنان ..

فى حجرته الصغيرة ، جلس (أدهم) الشاب صامتًا يفكر ...

كل ما قاله شقيقه (أحمد) كان سليمًا تمامًا ..

وهو محق فيه ، على نحو لا يقبل الشك ..

السفر من (مصر) ليس بالأمر السهل ..

إنه يحتاج إلى إجراءات ، وأوراق ، وتفاصيل ، وتحريات ، وموافقات ..

والأهم ، أنه يحتاج إلى جواز سفر ..

حتى اغتيال والده ، كان يسافر كل مرة بجواز سفر دبلوماسى مؤقت ، تبدأ صلاحيته مع خروجه من البلاد ، وتنتهى بعودته إليها ..

ولقد سلَّم جوازه إلى مكتب المخابرات ، الذى استخرجه له ، فور عودته من (باريس) إلى (القاهرة) ، فى آخر رحلة ميدانية ، أرسله إليها والده ، قبل أن يغتاله قتلة (الموساد) الأوغاد ..

وهو لا يحمل جواز سفر الآن ..

لا يحمل الوثيقة الأساسية ، التى تتيح له الخروج من الحدود ، حتى لو حصل على كل الموافقات الأمنية اللازمة ..

وزميل والده (حسن) ، لن يمنحه الموافقة على استخراج جواز سفر ، ما دام يخشى أن يستخدمه فى محاولة الثأر ..

المشكلة إذن صعبة للغاية ..

صعبة إلى أقصى حد ..

بل تكاد تكون مستحيلة !

جال الأمر فى رأسه ، فمال يسترخى على فراشه ، وأغلق عينيه ، وحاول أن يعيد دراسة الأمر فى ذهنه مرة أخرى ، فى هدوء أكثر ، وبعيدًا عن انفعاله بما أصاب والده الراحل ، وعلى ضوء مناقشته مع شقيقه ..

« هناك شخصية تاريخية ، لا أريدك أن تنساها يا (أدهم) .. شخصية (نابليون بونابرت) .. ليس لتاريخه وأفعاله ، ولكن من أجل عبارة واحدة قالها ، وأريدك أن تتخذها نبراسًا لحياتك كلها .. عبارة قال فيها : إن قاموسه لا يحوى كلمة مستحيل .. »

ترددت عبارات والده الراحل فى ذهنه ، وهو مسترخٍ على فراشه ، فأغلق عينيه بقوة أكبر ، وأطلق العنان لتفكيره ، بدون حد أقصى ..

ما يريده يبدو مستحيلاً ..

فقط لو نظرنا إليه ، من المنظور التقليدى ..

فلا أحد سيسمح له بالسفر إلى (إسرائيل) ..

أو حتى بالخروج من (مصر) ..

وهذا يعنى أن الأمر يحتاج إلى حلول غير تقليدية ..

حلول جريئة ..

غير نمطية ..

ومجنونة ..

والمشكلة هنا تنقسم إلى قسمين كبيرين للغاية ، وكلاهما أكثر صعوبة وخطورة من الآخر ..

الخروج من (مصر) ..

ودخول (إسرائيل) ..

وإذا ما نجح فى هذا وذاك ، فهناك المشكلة الأعظم ..

(إسرائيل) نفسها ..

ومن أول وهلة ، تبدو العملية كلها كمعضلة كبيرة ، وكأمر رهيب ، وقمة لا يمكن بلوغها أبدًا ، حتى ولو تم حشد جيش كامل من أجلها ..

وعلى الرغم من هذا ، فهو يفكِّر فى إنجازها وحده ..

بخبرته المحدودة ..

وسنوات عمره القليلة ..

وتلك النيران المستعرة فى أعماقه ..

نيران الثأر ..

ولهيب الانتقام ..

فهل هذا يكفى ؟!..

هل تكفى إرادته وحدها ، لمواجهة دولة كاملة ، بعدتها ، وعتادها ، وأمنها ، وجيوشها ، وحلفائها ؟!..

هل ؟!..

الجواب المنطقى هو لا ..

لا يمكن أن ينجح وحده فى هذا ..

من المستحيل أن ينجح !..

من المستحيل تمامًا !..

عند هذه النقطة ، فتح (أدهم) عينيه ، واعتدل جالسًا على طرف فراشه ، فى حركة مرنة سريعة ، وتألّقت عيناه ببرق عجيب ، وهو يغمغم ، بمنتهى منتهى الحزم والإصرار :

ـ لقد قالها (نابليون) قديمًا .. لا وجود لكلمة مستحيل!

لثانية واحدة ، بعد أن قالها ، ظلَّ جالسًا على طرف فراشه ، ثم هبَّ واقفاً بحركة قوية ، والتقط سمّاعة الهاتف ، المجاور لفراشه ، وطلب رقمًا خاصًا ، يحفظه عن ظهر قلب ، وانتظر حتى سمع صوت محدّثه ، على الطرف الآخر ، وهو يقول فى تراخٍ :

ـ من المتحدّث ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ أنا (أدهم) .. (أدهم صبرى) .

بدا وكأن كل التراخى قد زال من صوت محدّثه ، وهو يقول فى حماس :

ـ أهلاً يا (أدهم) .. يؤلمنى جدًّا ما حدث لوالدك .. لقد كنت فى الجنازة هذا الصباح ، وصافحت شقيقك ، ولكنك كنت منشغلاً مع ...

قاطعه (أدهم) فى حزم :

ـ (قدرى) .. أنا أحتاج إليك ..

ولم يجب (قدرى) على الفور ، ولكن كل ذرة فى كيانه ارتجفت .. ارتجفت بمنتهى القوة ..

* * *

« لا أستطيع أن أفهم وجهة نظرك .. »

نطقها مدير (الموساد) فى عصبية شديدة ، وهو يواجه (جراهام) ، الذى ظلَّ هادئاً متماسكًا ، وهو يقول :

ـ على الرغم من أنها بسيطة ومباشرة للغاية ؟!

لوَّح مدير (الموساد) بيده ، وقال فى حدة :

ـ اعتبرنى غبيًا .

أراد (جراهام) أن يقول : إنه يراه كذلك بالفعل ، إلا أنه لم يقلها ، ولم يقل حتى ما يمكن أن يشير إليها ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ عفوًا ، ولكن وجهة نظرى أن المساءلة الرسمية تعنى أوراقًا ، وسجلات ، وتحقيقات ، وعشرات الأوراق ، التى يمكن أن تتسرَّب يومًا ، فنكشف ما نحاول إخفاءه بشدة .

قال المدير فى صرامة :

ـ القانون هنا يحتم كشف الوثائق ، بعد ثلاثين عامًا .

أشار (جراهام) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ هذا لو أنه هناك وثائق .

تراجع المدير فى مقعده ، وداعب ذقنه بسبَّابته وإبهامه ، وهو يتطلَّع إلى (جراهام) فى عصبية ، قبل أن يعتدل بحركة حادة ، قائلاً :

ـ هل تطلب منى إخفاء حقائق رسمية يا (جراهام) ؟!

هزَّ (جراهام) رأسه نفيًا فى بطء ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ بل أطالبك بألا تمنح المصريين فرصة للتفوق علينا ، ولو فى مجال الإعلام .

عقد مدير (الموساد) حاجبيه ؛ عندما سمع تلك الكلمة السحرية ، التى تثير وتستفز أى مسئول إسرائيلى ، حتى يومنا هذا ، وقال فى عصبية ، ولَّدها انفعاله :

ـ لا يمكننى أن أعفيك من المساءلة الرسمية .

مطَّ (جراهام) شفتيه ، وكأنما لا يروقه هذا القول ، فاستدرك المدير فى سرعة وتوتر :

ـ إلا إذا ..

التقط (جراهام) الجملة ، قبل أن تكتمل وتساءل فى لهفة :

ـ إلا إذا ماذا ؟!

تطلَّع المدير إلى عينيه مباشرة فى صمت ، استغرق بضع لحظات ، قبل أن يجيب ، فى صرامة شديدة :

ـ إلا إذا اقتنع رئيس الوزراء بوجهة نظرك ..

تألَّقت عينا (جراهام) ، عندما سمع هذا ، وقال فى لهفة :

ـ هل يمكنك أن تعرض عليه مشروعى أيضًا ؟!

ردَّد المدير فى حذر :

ـ مشروعك ؟!

مال (جراهام) نحوه ، وتألَّقت عيناه أكثر ، وهو يقول :

ـ مشروع قسم الاغتيالات .

عاد حاجبا المدير يلتقيان فى شدة ، ونهض من خلف مكتبه فى بطء ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يتجه إلى نافذة حجرته ، التى وقف عندها صامتًا بضع لحظات ، قبل أن يلتفت إلى (جراهام) فى توتر ، ويتطلَّع إليه بنفس الصمت الصارم ، الذى دفع هذا الأخير ، إلى أن يقول فى عمق ، وكأنه شيطان ، يبث سمومه فى نفس بشرية :

ـ كل أجهزة المخابرات القوية ، عندها قسم مثله .. المخابرات الأمريكية ، والسوفيتية .. وحتى البريطانية ؛ لتنفيذ ما يطلق عليه اسم العمليات القذرة ، التى لا ينبغى إعلانها ، أو حتى الاعتراف بها ، ولكنها تزيح عقبات بالغة الخطورة ، تهدد الأمن القومى ، وتحذف كماً هائلاً من المشكلات ، التى يمكن أن تنشأ بسببها .

التقى حاجبا المدير ، فى شدة أكثر ، وهو يستمع إليه فى صمت ، شجّعه على أن يواصل ، متظاهرًا بالحماس :

ـ قسم الاغتيالات هذا ، قد يوقف تلك العمليات الانتحارية العنيفة ، التى يقوم بها المخربون العرب ، الذين يطلقون على أنفسهم لقب الفدائيين ؛ فلو اغتلنا قياداتهم ، سنكسر شوكتهم ، ونربك صفوفهم ، ونضيع عليهم وقتًا طويلاً ، فى إعادة تنظيم صفوفهم ، وقبل أن يفعلوا ، نكون قد اغتلنا من تم ترشيحه ، فنربكهم أكثر ، وهكذا .. الأهم أننا نستطيع أيضًا أن ندس عيوننا بين صفوفهم ، ونوحى إليهم عبرهم ، أن خصومهم هم من نفذوا ذلك الاغتيال ، ثم نجلس ونستمتع بمراقبتهم ، وهم يقاتلون بعضهم البعض ، وينشغلون عنا تمامًا ..

بدت الفكرة شديدة الأناقة ، بالنسبة لمدير (الموساد) ، ويمكنها ، على هذا النحو الأخير ، أن تقنع رئيس الوزراء ، بإنشاء ذلك القسم الجديد ، و ...

وفجأة ، برزت فى ذهنه فكرة ..

فكرة ، فجّرت فى نفسه انفعالاً قويًا ..

فكرة مثيرة ومدهشة ..

للغاية .

* * *

لم يستطع رئيس الوزراء الإسرائيلى استيعاب ما قاله مدير (الموساد) ، على الرغم من حماس هذا الأخير الشديد للفكرة ، فانعقد حاجباه فى غضب ، وهو يقول :

ـ قسم خاص للاغتيالات ؟!.. أى نوع من الفكر هذا ؟!

أجابه مدير (الموساد) بنفس الحماس :

ـ فكر عملى خالص ، ففى دولة نشأت على طرد السكان الأصليين من ديارهم مثلنا ، لابد وأن تواجه حركات مقاومة عنيفة ، ربما تستمر لسنوات طوالٍ ، وسيتزعمها حتمًا بعض المتحمسين والمندفعين والمتهورين ، وسيكون من مصلحة (إسرائيل) وأمنها ، أن نقضى عليهم ، بأية وسيلة كانت .

ضرب رئيس الوزراء بقبضته على سطح مكتبه ، قائلاً فى حدة :

ـ باغتيالهم ؟!.. ألا تدرك حجم الأزمة ، التى أثارها رجلك (دافيد جراهام) ، عندما اغتال رجل المخابرات المصرى فى (لندن) ؟!

أجابه مدير (الموساد) فى هدوء :

ـ الأزمة يثيرها نواب ، لا يدركون حجم الخطر ، الذى تواجهه (إسرائيل) ، والذى ينبغى لأمثالنا التصدى له ومنعه ، مهما كانت الوسيلة .. ويومًا ما ، سيذكر لك التاريخ ، أنك الرجل الذى منح (إسرائيل) أمنًا واستقرارًا أبديين .

العبارة الأخيرة جعلت رئيس الوزراء يعقد حاجبيه مفكرًا ، ويتراجع فى مقعده فى بطء ، ويقول :

ـ ولكن ماذا عن المعارضة ؟!.. أنت تعلم كم يتربصون بنا .. (جولدا مائير) ، تلك العجوز الشمطاء ، تسعى طوال الوقت لرياسة الوزراء ، وخبر كهذا قد يمنحها فرصة كبيرة ، للفوز بكل شىء .

مال مدير (الموساد) نحوه ، قائلاً :

ـ لذا ، فمن الضرورى ألا تعرف به .

ثم اعتدل ، مضيفًا ، بابتسامة صفراء :

ـ وألا يعلم به أحد .

تطلَّع إليه رئيس الوزراء فى صمت ، وراحت الفكرة تعبث برأسه لحظات ، قبل أن يسأل فى خفوت قلق :

ـ وماذا تريدون منى ؟!

عاد يميل نحوه ، مجيبًا ، فى صوت أشبه بالفحيح :

ـ موافقتك .

عاد رئيس الوزراء الإسرائيلى يتطلَّع إليه بضع لحظات ، قبل أن ينهض من مقعده ، ويدور فى المكان فى توتر ، ويلوذ بالصمت التام ، الذى جعل مدير (الموساد) يقول ، بالصوت نفسه :

ـ القانون يحتم هذا .

استدار إليه رئيس الوزراء ، قائلاً فى سخرية مريرة :

ـ القانون ؟!.. أى قانون ؟!.. إننا نتحدَّث عن اغتيالات غير شرعية .

قال مدير (الموساد) فى صرامة :

ـ ولكنها ضرورية .

مطَّ رئيس الوزراء شفتيه ، وعاد إلى تفكيره لدقيقة كاملة ، قبل أن يقول :

ـ الموافقة لابد وأن تكون كتابية .. أليس كذلك ؟!

أجابه فى حزم واقتضاب :

ـ بالطبع .

أطلق رئيس الوزراء زفرة متوترة ، وعاد إلى تفكيره ، الذى لم يستغرق طويلاً هذه المرة ، قبل أن يقول ، بلهجة من حسم أمره :

ـ لا بأس .. من أجل مصلحة (إسرائيل) .

ناوله مدير (الموساد) طلب إنشاء القسم الجديد ، وهو يقول ، بنفس تلك الابتسامة الصفراء :

ـ بالتأكيد .

وبعد تردُّد ، استغرق نصف دقيقة أخرى ، وقَّع رئيس الوزراء الإسرائيلى ، على قرار إنشاء القسم الجديد ..

قسم الاغتيالات ..

* * *

بدا الاهتمام الشديد على وجه رجل المخابرات المصرى (حسن) ، وهو يراجع كل التقارير الأمنية ، الواردة من مطار (القاهرة) ، وقوائم السفر الطويلة ، حتى إن مساعده سأله فى حيرة :

ـ لماذا كل هذا الاهتمام بأحوال المطار ؟!.. هل نخشى فرار جاسوس ما ؟!

هزَّ (حسن) رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ بلا .. إننى أبحث عن اسم (أدهم) .

ارتفع حاجبا المساعد فى دهشة ، وهو يتساءل :

ـ (أدهم) ؟!

أشار إليه (حسن) ، وهو يقول موضحًا :

ـ (أدهم) ، ابن المرحوم (صبرى) .

تضاعفت دهشة المساعد ، وتساءل فى حيرة :

ـ ولماذا يسافر (أدهم) ؟!

أجابه (حسن) بكلمة واحدة ، نطقها فى توتر بالغ :

ـ الانتقام .

اتسعت عينا المساعد ، بكل دهشة الدنيا ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ الانتقام ؟!.. وما شأن شاب مثله بهذه الأمور المعقَّدة .

قال (حسن) ، وهو يهز رأسه :

ـ (أدهم) ليس شابًا عاديًا .

قال المساعد :

ـ حتّى ولو كان اقوى شاب فى (مصر) ، لن يمكنه أن يواجه عمالقة (الموساد) الإسرائيلى .

غمغم (حسن) :

ـ من يدرى ؟!

هزَّ المساعد رأسه نفيًا فى قوة ، وقال فى حزم :

ـ ربما تبالغ فى الإيمان بقدراته ؛ لأنك ساهمت مع (صبرى) رحمه الله فى تربيته وتنشئته ، هو وشقيقه ، عقب وفاة أمهما ، ولكنه فى النهاية مجردُ صبى ، لن يجد حتّى الوسيلة للسفر إلى (إسرائيل) ، ولا حتّى للخروج من (مصر) ... ألم تقم بإلغاء جواز سفره الدبلوماسى بنفسك ؟!

تنهَّد (حسن) ، وهو يقول :

ـ بلى ، ولكن هذا لن يمنعه .

قلب المساعد شفتيه ، قائلاً :

ـ كم تبالغ فى ثقتك فى قدرات صبى صغير ؟!

هزَّ (حسن) رأسه ، وقال :

ـ لست أثق فى قدراته كما تتصوَّر ، وإلا لما أقلقنى الأمر ، ولكننى أعرفه جيدًا .. أعرفه أكثر مما تعرفه أنت بكثير ، وهذا

ما يقلقنى للغاية ، فـ(أدهم) ، على الرغم من صغر سنه ، يمتلك إرادة فولاذية ، تفوق إرادة رجال يبلغون ضعف عمره ، كما أن عناده وإصراره يفوقان إرادته ، ولو أنه أراد الانتقام لوالده ، فسيكون من شبه المستحيل أن تمنعه من هذا .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ مهما حاولت .

صمت المساعد لحظة ، محاولاً استيعاب هذا المنطق ، وعاد يقول فى إصرار :

ـ هذا لا يستطيع إقناعى .

هزَّ (حسن) رأسه مرة أخرى ، وقال :

ـ سنرى .

نطقها فى مزيج من التحدى ..

والقلق ..

والخوف ..

بلا حدود ..

* * *

استمع (قدرى) إلى (أدهم) فى اهتمام شديد ، واستطاع بسرعة أن يستوعب منطقه ، على الرغم من اعتراضه الشديد عليه ، ثم قال :

ـ الواقع يا (أدهم) أننى أختلف معك كثيرًا .

غمغم (أدهم) :

ـ هذا أمر طبيعى .

أشار (قدرى) بيده ، قائلاً :

ـ أولاً .. السفر إلى (إسرائيل) ليس بالأمر السهل ، وحتى لو نجحت فى دخولها ، فكيف ستتعامل داخلها ؟!.. وكيف سيمكنك أن تصل إلى قلب (الموساد) ، الذى يعجز الإسرائيليون أنفسهم عن الوصول إليه ، وحتى لو اجتزت العقبتين السابقتين ، وأصبحت داخل (الموساد) نفسه ، فبأية وسيلة ستعلم من المسئول عن اغتيال والدك ؟!.. وكيف ستصل إليه ؟!.. بل كيف ستنتقم منه ؟!

لم يجب (أدهم) أيًا من تساؤلاته ، وهو يتطلّع إليه بنظرة خاوية فى صمت ، مما شجّعه على أن يتابع :

ـ أرأيت كم من العقبات عليك تجاوزها ؟!

أجابه (أدهم) فى بطء :

ـ كلها ليست بالصعوبة التى تتصوّرها .

حدّق فيه (قدرى) بدهشة ، ثم لم يلبث أن ابتسم مشفقًا ، وهو يقول :

ـ ربما تبدو هينة ، وأنت تناقشها هنا .. فى (مصر) ، ولكن لو أصبحت فى (إسرائيل) ، فستختلف الصورة حتمًا .

بدا (أدهم) هادئًا أكثر مما ينبغى ، وهو يقول :

ـ إننى أتوقّع كل هذه الاحتمالات ، ولقد قمت بدراستها كلها .

سأله (قدرى) :

ـ وإلى ماذا أوصلك هذا ؟!

أجابه فى حزم :

ـ إلى ضرورة السفر إلى إسرائيل .

وجاء الجواب مفاجئاً لـ (قدرى) .. بشدة .

* * *

3ـ الغائب ..

شعرت السياسية الإسرائيلية (جولدا مائير) بقلق عارم ، عندما التقى بها رجل غامض ، فى اجتماع حزبها ، وأخبرها أن مدير (الموساد) يرغب فى مقابلتها ..

سرًا ..

كانت تعلم أن النظام السياسى فى (إسرائيل) ، جعل تبعية جهاز المخابرات لمجلس الوزراء ، ورئيس الوزراء ، وليس لرئيس الجمهورية ، كالمتبع فى الدول العربية و(أمريكا) ومعظم دول (آسيا) ..

ولقد دفعها هذا إلى التساؤل ، عما يريده منها مدير (الموساد) بالضبط ؟!..

أهو أمر يتعلّق بإعلانها ترشيح نفسها لرياسة الوزراء ، فى الدورة القادمة ؟!..

أم إنه أمر شخصى ؟!..

جالت عشرات الأسئلة فى رأسها ، ولكنها أجلتها ، لحين لقائها به ..

وفى المكان الذى حدَّده ، وعبر وسائل معقدة ، ومحاطة بسرية بالغة ، التقى الطرفان .. مدير (الموساد) ..

و(جولدا) ..

وفى اللحظة الأولى للقائهما ، بدت (جولدا) عدوانية ، وهى تقول :

ـ لماذا طلبت مقابلتى ؟!

ابتسم مدير (الموساد) ، قائلاً :

ـ ولِمَ لا تجلسين أوَّلاً ؟!

كرَّرت ، فى عدوانية صارمة :

ـ لماذا طلبت مقابلتى ؟!

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ لأمر يفيد حملتك الانتخابية .

انعقد حاجباها الكثان ، اللذان يشبهان حواجب الرجال ، وتطلَّعت إليه بضع لحظات فى شك ، قبل أن تقول :

ـ ولماذا ؟!

تساءل فى حذر :

ـ لماذا يفيدك ؟!

قالت فى حدة :

ـ بل لماذا تفعل ما يفيدنى ؟!

اكتفى بابتسامة هادئة ، فاستطردت فى حدة أكثر :

ـ المفترض أنك تتبع رئيس الوزراء الحالى .

قال فى هدوء :

ـ هذا صحيح .

بدا عليها غضب واضح ، وهى تقول :

ـ أريد أن أفهم .

التقط صورة ضوئية ، لقرار رئيس الوزراء الأخير ، وناولها إياه ، قائلاً :

ـ ربما يجعلك هذا تفهمين .

اختطفت الورقة من يده اختطافًا ، والتهمت كلماتها فى لحظات ، قبل أن ترفع عينيها إليه بحركة حادة ، هاتفة :

ـ قسم للاغتيالات ؟!.. هل تدرك أية ضجة ، يمكن أن يثيرها ، خبر إنشاء قسم كهذا .

ابتسم ، مجيبًا :

ـ يمكن أن يمنح رئيس الوزراء الحالى فرصة مثالية ، لربح الانتخابات القادمة .

حدّقت فيه مستنكرة ، فتابع فى ثقة :

ـ أحد أهم مهام أى جهاز مخابرات فى الدنيا ، أن يدرس تداعيات القرارات والصدمات ، وأن يستطلع رأى العامة ، لمعرفة ردود الفعل المتوقعة ، لأى قرار يصدر ، وأى موقف يحدث(*) ، ومن هذا المنطلق ، تأكّدنا من أن الشارع الإسرائيلى سيحسن استقبال مثل هذا الخبر ، الذى سيثير حتمًا حفيظة البعض ، وربما أغضب البعض الآخر ، ولكنه سيؤدى ، وفقًا لنسبة من سيتلقونه بارتياح ، إلى رفع أسهم رئيس الوزراء ؛ لأن معظم الإسرائيليين سيجدونها فرصة ، تتيح لهم التخلص من قادة المخربين العرب ، الذين يذيقونهم الويلات ليل نهار .

غمغمت فى دهشة :

ـ لقد تصوّرت العكس .

أشار بيده قائلاً :

ـ رئيس الوزراء أيضًا يتصوّر هذا .

ثم مال نحوها ، مستطردًا بابتسامته الصفراء :

(*) حقيقية .

ونحن لم نطمئنه إلى العكس .

عاد حاجباها الكثان ينعقدان ، وهى تنظر إليه فى شك ، قبل أن تقول ، فى حذر شديد :

ـ ولماذا ؟!

أجابها فى حزم :

ـ لأن استطلاعاتنا أثبتت أيضًا ، أن الإسرائيليون يميلون إلى الجانب الآخر .

صمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ إليك .

تألّقت عيناها ، على نحو تعارض مع بشرتها المتغضنة ، وهى تردّد :

ـ إلىّ أنا ؟!

أشار بسبّابته وإبهامه المتقاربين :

ـ ولكن بنسبة ضئيلة للغاية .

عادت تتجهّم ، فاستطرد :

ـ وربما تمنحك هذه الورقة ما يكفيك .

تساءلت فى دهشة :

ـ ولكنك قلت ...

قاطعها فى سرعة :

ـ ليس بإعلانها .

عاد الشك والحذر يعربدان فى ملامحها ونظرتها ، فأضاف :

ـ ولكن بالمساومة عليها .

اتسعت عيناها ، وقد استوعبت ما يعنيه ، وابتسمت ابتسامة مقيتة ، وهى تقول :

ـ أظن أنه يمكننا أن نتفاهم .

أشار بيده ، قائلاً :

ـ لو قبلت العرض .

وثب شكلها وحذرها إلى ذروتهما ، وهى تقول :

ـ أى عرض ؟!

ابتسم ابتسامته الصفراء البغيضة ، وهو يجيبها :

ـ سأخبرك .

وانعقد حاجباها الكثّان أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

كما يفعل يوميًا ، راجع (حسن) تقارير المطار الأمنية ، وقوائم المسافرين ، ثم غمغم محدثًا نفسه :

ـ لم يفعلها بعد .

فقضى بضع لحظات مفكرًا ، ثم بدأ القلق يتسلّل إلى نفسه ..

(أدهم) لا يمكن أن يغادر (مصر) ، عبر الطرق الشرعية والرسمية ..

ببساطة ؛ لأنه لا يحمل جواز سفر ..

ووفقًا لتعليماتى ، لن يمكنه أن يستخرج جواز سفر ، من أى منفذ كان ..

ولكن ربما يحاول التسلّل عبر الحدود ..

ربما يجد وسيلة ما ..

أية وسيلة !..

ومثل (أدهم) ، لن يعدم الوسيلة ..

مهما بلغت صعوبتها ..

أو بلغت خطورتها ..

تضاعف قلقه مع الفكرة ، فضغط زر استدعاء أحد رجال الأمن ، وما إن دلف إلى حجرته ، حتى قال بلهجة آمرة :

ـ اذهب إلى منزل المرحوم (صبرى) ، وراقب ولديه (أدهم) و(أحمد) طوال الوقت .. أريد أن أعرف أين يذهبان ، ومتى ، وكيف .. هل تفهم .

أجابه الرجل فى حزم :

ـ بالتأكيد يا سيِّد (حسن) .

غادر الرجل مكتبه ، وتركه يعود إلى قلقه ..

(أدهم) عنيد للغاية ..

هذه أبرز سماته ..

ولقد واجه أجهزة مخابرات أجنبية بالفعل ..

وقاتلها ..

وانتصر عليها ..

وهذا يمنحه الجرأة ..

والصلابة ..

والإرادة ..

بلا حدود ..

وشاب بكل هذا ، حتى دون تلك القدرات الفائقة ، التى غرزها فيه والده ، يمكنه أن يتحدَّى الدنيا كلها ..

بكل مصاعبها ..

وكل مخاطرها ..

استغرقته الفكرة طويلاً ، حتى لم يشعر إلا وهاتفه يرن فجأة ، وينتزعه من أفكاره فى حدة ، فاختطف سمَّاعته ، وقال المتحدِّث فى توتر :

ـ أنا مسئول مراقبة منزل السيد (صبرى) .

سأله فى لهفة :

ـ ماذا وجدت ؟!

أجابه الرجل :

ـ الأخ الأكبر (أحمد) ، يستذكر دروسه طوال الوقت ، ولا يغادر المنزل إلا لممًا .

سأله ، وقد تضاعفت لهفته :

ـ وماذا عن الأخ الأصغر (أدهم) ؟!

أجابه الرجل فى أسف :

ـ لا أحد يدرى أين ذهب .. لقد اختفى .. اختفى تمامًا .

وكانت صدمة عنيفة ..

بحق .

* * *

ارتبك مكتب أمن المطار فى شدة ، عندما أجرى رجل المخابرات (حسن) ، ذلك التفتيش المفاجئ عليه ، وطلب مراجعة قوائم السفر ، والتأكُّد من صحة اسم وهوية أى مسافر ، بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين ..

وفى قلق شديد ، سأله رئيس المكتب :

ـ هل ارتكبنا أية أخطاء ؟!

هزَّ (حسن) رأسه نفيًا ، وهو منهمك فى مراجعة القوائم ، وقال :

ـ مطلقًا .

سأله رئيس المكتب ، فى دهشة أكثر :

ـ لماذا هذا الاهتمام المفاجئ إذن ؟!

رفع (حسن) عينيه إليه ، مجيبًا :

ـ نبحث عن شاب ، نعتقد أنه قد سافر ، باسم مستعار ، وجواز سفر مزيَّف .

هتف الرجل بسرعة :

ـ مستحيل !

ثم أضاف ، وهو يشير إلى صالة الجوازات :

ـ كل مواطن يغادر (مصر) ، لابد وأن يتم التدقيق فى أوراقه جيدًا ، ومراجعة اسمه على قوائم المطلوبين ، والتيقن من أنه يحمل تصريحًا بالسفر ، و ...

قاطعه (حسن) فى صرامة :

ـ وماذا لو لم يكن مصريًا ؟!

صدم السؤال الرجل ، فارتبك لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ فى هذه الحالة ، نتأكَّد من أنه يحمل تأشيرة دخول سليمة ، ومن أنه لم يتجاوز مدة إقامته .

وتردَّد لحظة ، قبل أن يضيف فى خفوت :

ـ فقط .

التقط (حسن) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ وهنا تكمن المشكلة .

وعاد إلى القوائم ، مردفًا :

ـ للأسف .

وقفزت دهشة رئيس مكتب الأمن إلى ذروتها ..

فهو لم يفهم ما يعنيه هذا ..

لم يفهم أبدًا ..

* * *

استقبل رئيس الوزراء الإسرائيلى ذلك الطلب ، الذى تقدَّمت به النائبة (جولدا مائير) لزيارته ، فى دهشة حقيقية ، وحذر بلا حدود ، ولكنه وضع بطاقتها المهنية إلى جواره ، وهو يقول لمدير مكتبه :

ـ دعها تدخل .

مضت لحظات ، قبل أن تدخل (جولدا) ، بجسدها المترهّل ، وملامحها القبيحة ، وتقول :

- بوكورتوف[*] .

رد تحيتها بهمهمة غير مفهومة ، ثم سألها ، فى شىء من العصبية :

- ماذا تريدين يا (جولدا) ؟!

أجابته فى برود :

- أن نتفق .

سألها فى سرعة :

- فيم ؟!

أجابت ، وهى تنظر إلى عينيه مباشرة :

- فى أن أنتزع منك مقعد رياسة الوزراء .

عبارتها جعلت عينيه تتسعان فى شدة ، وجعلته يحدّق فيها ذاهلاً ، قبل أن يقول ، فى غضب حاد :

- هل جننت ؟!

هزّت كتفيها ، قائلة :

- ربما .

(*) صباح الخير ، بالعبرية .

ثم أخرجت الورقة ، التى تحوى صورة قراره ، بإنشاء قسم الاغتيالات ، ووضعتها أمامه ، قائلة :

- وربما تقنعك هذه .

ألقى نظرة مستهترة على الورقة ، ولكنه لم يكد يدرك فحواها ، حتى امتقع وجهه ، وقال فى شحوب ، وهو يختطفها :

- من أين حصلت عليها ؟!

ابتسمت ، حينما رأته يمزّقها ، وأجابت :

- إنها واحدة من ألف نسخة ، أحتفظ بها فى خزانتى .

بدا شديد الشراسة ، وهو يسألها :

- من أين حصلت عليها ؟!

استرخت فى مقعدها ، وقد راق لها غضبه ، وقالت لتستفزه أكثر :

- يمكنك أن تقول إنه لدىّ جاسوس وسطكم .

قال فى حدة :

- فى قلب (الموساد) ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تكرّر :

- فى قلب (الموساد) .

تفجَّر الغضب من ملامحه وعينيه ، وبدا للحظة وكأنه سينقض عليها ، إلا أنه لم يلبث أن تراجع ، وجلس على مقعده ، قائلاً :

ـ وبِمَ يمكن أن تفيدك هذه الورقة ؟!

أجابته :

ـ تساعدنى على ربح المعركة .

رمقها بنظرة صامتة طويلة ، قبل أن يسأل :

ـ وماذا لو أننى رفضت التنازل ، عن مقعد رئيس الوزراء ؟!

أجابته فى صرامة :

ـ سأعمل على نشرها .

رمقها بنظرة طويلة أخرى ، ثم استغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً :

ـ أريد فرصة للتفكير .

نهضت ، قائلة :

ـ يوم واحد فقط .

قال فى سرعة :

ـ بل يومين .

ابتسمت ، وهى تنصرف ، قائلة :

ـ هذا يكفى .

ظل ينظر إلى الباب ، الذى أغلقته خلفها ، فى صمت وتفكير عميقين ، ثم لم يلبث أن التقط سمَّاعة هاتفه ، وقال :

ـ أرسل فى طلب مدير (الموساد) ... فورًا .

وأعاد السمَّاعة ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يعاود التفكير ..

بمنتهى العمق ..

* * *

بدا (أحمد صبرى) شديد الشحوب ، وهو يدور فى صالة منزله ، فى توتر شديد ، ويجيب (حسن) ، قائلاً :

ـ لست أعرف بالتأكيد أين (أدهم) .. لقد استيقظت هذا الصباح ، فلم أجده فى فراشه ، ولا فى أى مكان آخر بالمنزل .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى عصبيـة ، وهو يخرج من جيبه ورقة صغيرة :

ـ لم أجد سوى هذه .

اختطف (حسن) الورقة من يده ، متصورًا أنها ستحوى اسم المكان ، الذى ذهب إليه (أدهم) ، ولكنه فوجئ بأنها لا تحوى سوى كلمة واحدة ..

اغفر لى ..

وانعقد حاجبا (حسن) فى شدة ..

ما الذى تعنيه هذه الكلمة ؟!..

ما الذى يقصده (أدهم) ؟!..

لِمَ ترك هذه الورقة خلفه ؟!..

لماذا ؟!..

لماذا ؟!..

« هل تعتقد أنه أقدم على الانتحار ؟!.. »

ألقى (أحمد) السؤال ، فى توتر بالغ ، فانتزع (حسن) من أفكاره ، وجعله يقول فى سرعة وحزم :

ـ مستحيل !..

كاد يكتفى بهذا الجواب ، إلا أنه لم يلبث أن أضاف :

ـ (أدهم) ليس من ذلك الطراز ، الذى يواجه أزماته بالانتحار .. إنه شاب قوى .. أقوى مما تتصوَّر بكثير .

تطلَّع إليه (أحمد) لحظة فى صمت ، ثم غمغم :

ـ أعلم هذا .

طوى (حسن) الورقة ، ودسَّها فى جيبه ، وهو يقول :

ـ أعتقد أنه قد تركها ، لأنه أرادك بكل بساطة ، أن تغفر له .

هتف (أحمد) :

ـ أغفر له ماذا ؟!

التقط (حسن) نفسًا عميقًا ، وتطلَّع إليه لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ رغبته فى الانتقام .

اتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما ، وحفر الارتياع ملامحه على وجهه ، وهو يغمغم :

ـ رباه !.. الانتقام .

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا ، واتجه نحو أقرب مقعد إليه ، وهو يقول :

ـ هذا ما كنت أخشاه .

تمتم (أحمد) فى شحوب :

- وأنا أيضًا .

جلس (حسن) ، وهو يقول :

- ووفقًا لهذا ، أظننى أعلم أين ذهب (أدهم) بالضبط .

سأله (أحمد) ، وقد بلغ شحوبه منتهاه :

- أين ؟!

كان يعلم الجواب مسبقاً ، وعلى الرغم من هذا ، فقد عجزت ساقاه عن حمله ، عندما أجاب (حسن) فى مرارة :

- (إسرائيل) .

والمدهش أنه كان على حق ..

تمامًا .

* * *

4- سـؤال ..

عندما دلف مدير (الموساد) إلى مكتب رئيس الوزراء ، كانت شفتاه تحملان تلك الابتسامة الصفراء البغيضة ، التى استفزت رئيس الوزراء أكثر ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

- من الخائن من رجالك ؟!

تظاهر مدير (الموساد) بالدهشة ، وهو يقول :

- خائن ؟!.. ليس بيننا خائن ، يا سيادة رئيس الوزراء .

صاح فيه رئيس الوزراء :

- بل هناك خائن .. خائن نجح فى الحصول على صورة ، من قرار إنشاء ذلك القسم الجديد ، وقدمها لقمة سائغة للنائبة (جولدا) ، فأتت لتساومنى عليها هنا .. فى مكتبى .

رفع مدير (الموساد) حاجبيه ، فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

- فى مكتبك ؟!

رمقه رئيس الوزراء بنظرة صارمة ، وكأنما يعلمه أن هذا الأسلوب لم ينطل عليه ، فتابع مدير (الموساد) :

- ولكن تساومك على ماذا ؟!

أجابه فى حنق :

ـ على مقعدى .

ابتسم مدير (الموساد) ، وهو يقول :

ـ لا تقبل المساومة .

احتقن وجه رئيس الوزراء ، وهو يقول :

ـ كيف ؟!.. إنها تملك ورقة شديدة الخطورة .. ورقة لابد وأن تعلم ، من نقلها إليها بالضبط .

هزَّ الرجل رأسه فى هدوء ، وقال :

ـ هذا مستحيل تقريبًا ؛ فهذه الورقة عبارة عن قرار رسمى ، بإنشاء قسم جديد ، مما يعنى ضرورة أن يتداوله أكثر من عشرة أشخاص على الأقل ، وأن يعلم به ما لا يقل عن سبعة عشر آخرين .

صاح به رئيس الوزراء :

ـ وتطلق على هذا اسم السرية ؟!

هزَّ الرجل كتفيه هذه المرة ، وقال :

ـ كلهم رجال مخابرات .

هتف رئيس الوزراء محنقًا :

ـ حقًّا .

التقط مدير (الموساد) نفسًا عميقًا ، وأجاب فى صرامة :

ـ حقًّا .

احتقن وجه رئيس الوزراء أكثر ، وقرَّر تجاوز الأمر ، وهو يقول فى عصبية :

ـ وكيف لا أقبل مساومة (جولدا) ؟!

أخرج مدير (الموساد) من جيبه ورقة ، ناولها لرئيس الوزراء ، قائلاً :

ـ بهذا الأسلوب .

التقط رئيس الوزراء الورقة ، وفضَّها فى حذر ..

كانت تحوى نتائج استطلاع الرأى ، التى تشير إلى ارتفاع أسهمه ، بين جموع الناخبين ، لو تم كشف القرار ..

وتألَّقت عينا رئيس الوزراء ..

هذا يعنى أنه ليس مضطرًا لقبول ما تقوله (جولدا) ..

ليس مضطرًا لمساومتها ..

أو حتى مقابلتها ..

وفى لهفة واضحة ، سأل مدير (الموساد) :

ـ أأنت واثق من هذه النتائج ؟!

أجابه فى حزم :

ـ تمام الثقة .

تألَّقت عينا رئيس الوزراء ، وهو يعود إلى مكتبه ، ويلتقط سمَّاعة هاتفه الخاص ، ويطلب رقم (جولدا) ، التى ما أن أجابته ، حتى قال فى صرامة :

ـ عرضك مرفوض يا (جولدا) .

وصفق الهاتف فى وجهها فى عنف ، ورفع عينيه الظافرتين إلى مدير (الموساد) ، الذى ابتسم ابتسامة واسعة ..

ابتسامة صفراء ..

بغيضة ..

* * *

على الرغم من شعور (قدرى) بالتوتر الشديد ، وهو يقف أمام (حسن) ، داخل منزله هو ، إلا أنه حاول التماسك بقدر الإمكان ، وهو يقول :

ـ (أدهم) ؟!.. أتقصد ذلك الصبى .. ابن السيِّد (صبرى) رحمه الله ؟!

ارتسمت ابتسامة ضيق على وجه (حسن) ، وهو يتطلَّع إلى (قدرى) فى صمت ، قبل أن يتخذ مجلسًا ، وهو يقول :

ـ اسمع يا (قدرى) .. ربما تتصوَّر نفسك ممثلاً بارعًا ، ولكن يؤسفنى أن أخبرك أن هذا لن يجدى نفعًا .. قل لى : هل بدأت تدريباتك لدينا ؟!

أجابه (قدرى) فى حذر :

ـ ليس بعد .

أومأ (حسن) برأسه متفهماً ، وقال :

ـ لو أنك بدأت ، لأدركت أن أحد أهم الأمور ، التى يتدرَّب عليها رجل المخابرات ، كشف ردود الأفعال الصغيرة واللا إرادية ، التى يقوم بها المرء ، عندما يلجأ إلى الكذب(*) .. لقد أمسكت يمناك بيسراك ، وضغطت عليها دون مبرِّر ، وارتفع حاجباك ، دون الحاجة إلى هذا ، وتحدَّثت فى بطء ؛ لتزن كل حرف ، قبل أن تنطقه ، وبالنسبة لنا ، تعتبر كل هذه علامات مؤكَّدة ، على حالة كذب(**) ..

(*) حقيقة .

(**) حقيقة .

ارتسم الذعر لحظة ، على وجه (قدرى) ، قبل أن يغمغم :

ـ كنت أعلم أننى سأفشل .

سأله (حسن) فى صرامة :

ـ أين ذهب (أدهم) ؟!

تردَّد (قدرى) ، وقال فى عصبية :

ـ لقد أقسمت .

سأله فى اهتمام :

ـ على ماذا ؟!

أجابه فى عصبية :

ـ على كتمان السر .

انعقد حاجبا (حسن) فى صرامة :

ـ وماذا لو أجبرتك ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ لن تفعل .

بدت الدهشة على وجه (حسن) ، ربما لأن (قدرى) قد أصاب كبد الحقيقة مباشرة ..

ولوهلة ، لاذ بالصمت التام ، وهو يتطلَّع إليه ، ثم يقول فى بطء :

ـ ربما أبلغ الجهاز ، و ...

قاطعه (قدرى) بنفس السرعة :

ـ لن تفعل .

مرة أخرى ، ارتسمت الدهشة على وجه (حسن) ، ولكنه فى هذه المرة هتف :

ـ لماذا تثق فى هذا ؟!

أشار (قدرى) بيده ، قائلاً :

ـ لأنك أتيت وحدك .. لو أنك ترغب فى أن يعلم جهاز المخابرات رسميًا بما يحدث ، لأحضرت مساعدًا واحدًا معك على الأقل ، ولكن الواقع أنك لا ترغب فى هذا ، حتى لا تكون السبب فى إضافة نقطة سوداء ، إلى ملف (أدهم) ، يمكن أن تعوق التحاقه بالجهاز فى المستقبل .. لقد أتيت وحدك ؛ لأنك تريد أن تعرف .. أن تطمئن ، وليس أن تعاقب أو تردع .

لم يستطع (حسن) ، على الرغم من الموقف ، إخفاء انبهاره بـ (قدرى) ، وإعجابه بأسلوبه فى التفكير المنطقى المنظَّم ..

ولما يقرب من دقيقة كاملة ، ظلَّ يتطلَّع إليه في صمتٍ ، قبل أن يقول :

ـ هل تبر بقسمك دائمًا ؟!

أجابه فى حزم :

ـ دائمًا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ وبالذات مع (أدهم) .

ابتسم (حسن) ، وقال :

ـ يدهشنى أن تربطك به صداقة قوية إلى هذا الحد ، فى هذا الزمن القصير .

تنهَّد (قدرى) ، قائلاً :

ـ وأنا أيضًا .

كان (حسن) يبحث عن سؤال ، يمكن أن يدفع (قدرى) للإفصاح عما لديه ، دون أن يحنث بقسمه ، فسأله :

ـ ما الأوراق الرسمية ، التى صنعتها مؤخرًا ؟!

بدا أن (قدرى) قد فهم اللعبة ، ولكنه أجاب فى حذر :

ـ جواز سفر فرنسى ، وبطاقة هوية .

اكتفى بهذا القول ، فسأله (حسن) :

ـ إسرائيلى ؟!

جاوبه بهزة رأس حذرة ، فتنهَّد فى ارتياح ، قائلاً :

ـ هذا يكفى .

قالها ، وغادر المنزل على الفور ، ليراجع قوائم السفر الأخيرة ، بحثًا عن شاب فرنسى ، له سمات (أدهم) ..

لقد فهم اللعبة ..

أو أنه يعتقد هذا ..

سيسافر (أدهم) ، بجواز سفر فرنسى متقن التزوير ، ويحمل تأشيرة دخول مزوَّرة ، إلى (فرنسا) ..

ومنها إلى (إسرائيل) ..

ولو تحرَّك فى سرعة ، فقد يستطيع إيقافه فى (باريس) ..

لم يدر ، وهو ينطلق بسيارته إلى المطار ، متجاوزًا السرعات القانونية ، أن تحركه قد بدأ متأخرًا ..

متأخرًا تمامًا .

* * *

بدت النائبة الإسرائيلية (جولدا مائير) شديدة العصبية والتوتر ، وهى تلتقى بمدير (الموساد) سرًا ، فى تلك المنطقة النائية من (تل أبيب) ، وقالت فى حدة :

ـ ما معنى هذا بالضبط ؟!.. لقد أخبرتنى أن هذا الأمر سيجبر رئيس الوزراء على الانسحاب ، وبناءً عليه ، فقد قمت بمواجهته ، ولقد بدا شديد التوتر عندئذ ، مما جعلنى واثقة من أنه قد اندحر ، ثم إذا به فجأة يبدو قويًا متماسكًا ، ويرفض عرضى بكل ثقة ، فما تفسيرك لهذا ؟!

أجابها مدير (الموساد) فى هدوء :

ـ ربما وصله التقرير الرسمى ، الذى يشير إلى تصاعد أسهمه ، فى حالة إعلان الأمر .

هتفت مندهشة :

ـ مستحيل !.. وهل يمكن أن ترتفع أسهمه بالفعل ، مع إعلان أمر كهذا ؟!

تظاهر بالأسف ، وهو يقول :

ـ هذا ما أسفرت عنه نتائج استطلاع الرأى ، التى طلب منى إعدادها شخصيًا .

انعقد حاجباها الكثان فى توتر شديد ، وهى تقول :

ـ إذن فقد خسرت هذه الجولة .

هزَّ رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يقول :

ـ ليس بالضرورة .

التفتت إليه متسائلة فى توتر :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

حافظ على ابتسامته الخبيثة لحظات ، قبل أن يميل نحوها ، قائلاً :

ـ لقد أعطانا موافقته الرسمية ، على إنشاء قسم الاغتيالات ، ومن الممكن رسميًا أن نبدأ عملنا فورًا .

غمغمت فى حذر :

ـ أمر طبيعى .

تراجع ، قائلاً :

ـ ماذا إذن لو بدأنا باغتيال أحد زعماء المقاومة الكبار ، على نحو يستفز المجتمع الدولى كله ، ويثير غضب الحليف قبل العدو ؟!..

تألقت عيناها ، وهى تقول فى انفعال :

ـ عندئذ سينقلب الكل على (إسرائيل) ، وسيصبح رئيس وزرائها فى موقف لا يحسد عليه .

قال ، مشيراً بيده :

ـ وإذا ما ظهرت الوثيقة فى تلك اللحظة .

أكملت فى حماس :

ـ ستنهار أسهمه تمامًا .

أشار بيده مبتسمًا ، فسألته فى لهفة :

ـ وهل يمكنك أن تفعل هذا ؟!

بدت ابتسامته شديدة الخبث ، وهو يجيب :

ـ أنا فى خدمة رئيسة الوزراء .

ومال نحوها مرة ثانية ، مضيفًا :

ـ القادمة ..

وتألَّقت عينا (جولدا مائير) ..

بمنتهى الشدة ..

* * *

تطلَّعت موظفة السفارة الإسرائيلية فى (باريس) ، إلى ذلك الشاب الأشقر الهادئ ، الذى يجلس أمامها بعينيه الزرقاوين ، حاملاً آلة تصوير بسيطة على كتفه ، وراجعت هيئته مع تلك الصورة ، فى جواز سفره الفرنسى ، قبل أن تسأله :

ـ ولماذا تريد السفر إلى (إسرائيل) ؟!

بدا شديد الحماس ، وهو يجيب :

ـ لافتاتكم فى كل مكان ، تدعو الناس إلى السفر إلى (إسرائيل) ، ونشراتكم السياحية تحوى عشرات المشاهد الجميلة ، التى يسيل لها لعاب أى مصوِّر .

سألته فى حذر :

ـ هل تعمل بالتصوير ؟!

ابتسم فى خجل ، وهو يجيب :

ـ بل أدرسه فحسب .

ثم أخرج كومة من الصور من جيبه ، ووضعها أمامها ، قائلاً :

ـ انظرى .. هذه صورة التقطتها للرهبان فى (تايوان) ، وهذه صورة لمعبد قديم فى (نيودلهى) ، وهذه ..

قاطعته ، وهى تعيد الصور إليه فى ضجر :

ـ هذا جميل .. ستجد عشرات المناطق ، التى تستحق التصوير فى (إسرائيل) ..

استعاد الصور ، وهو يقول متحمساً :

ـ بالتأكيد .. الأحياء القديمة فى (القدس) ، والمتاجر العامة فى (تل أبيب) ، ومزارع البرتقال ، و ...

قاطعته مرة أخرى :

ـ ادفع الرسوم ، وعد غدًا ، لتتسلّم تأشيرتك .. سيعطونك إيصالاً باستلام جواز سفرك .

لم يبد اهتمامًا شديدًا ، وكأنما كان يتوقّع الحصول على التأشيرة ، وسألها ، فى شىء من حماس الشباب :

ـ ملامحك شرقية جميلة .. هل يمكننى التقاط صورتك ؟!

أشارت بيدها ، فى حزم ضَجِرٍ :

ـ كلا .. هذا غير مسموح .. التالى .

هتفت تنادى التالى ، على أمل التخلُّص من ملل ذلك الفرنسى الأشقر ، الذى لملم صوره ، وأعادها إلى جيب سترته ، وغادر المكان ، ليحصل على إيصال استلام جواز سفره ، ويغادر السفارة كلها ..

الأمور تسير وفقًا لخطته ، حتى هذه اللحظة ..

وتمامًا كما علمه والده الراحل ، وكما درَّبه عميد متقاعد ، كانوا وما زالوا يعتبرونه من أبرع المخططين ، فى عالم المخابرات ، فقد وضع خطة مركَّبة معقَّدة ، حاول من خلالها أن يضع كل الاحتمالات فى اعتباره ..

وأن يستعد لكل التطورات ..

حتى العسير منها ..

وها هو ذا الآن فى قلب (باريس) ، يحمل جواز سفر فرنسى ، وبطاقة هوية جامعية شديدة الإتقان ، صنعتها أصابع (قدرى) الذهبية ، وينتظر الحصول على تأشيرة دخول (إسرائيل) ، على نحو رسمى ..

ولكنه مضطر للانتظار ، ليوم كامل ..

أربع وعشرين ساعة ، يمكن أن يحدث فيها الكثير ..

والكثير جدًا ..

جدًا ..

* * *

راجع مدير أمن المطار قوائم المسافرين للمرة الثانية ، قبل أن يقول لـ(حَسن) فى قلق :

ـ ثلاثة شبان ، تنطبق عليهم المواصفات نفسها ، سافروا خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية ، فى طريقهم إلى (باريس) .. اثنان منهم فرنسيين ، يحملان تأشيرة دخول سليمة ، والثالث ابن دبلوماسى نيجيرى ، يحمل جواز سفر أحمر .

قال (حسن) فى حزم :

ـ راجع تأشيرات دخول ثلاثتهم ، فى السجلات الرسمية ، وراجع كل قوائم الوصول ؛ لتتيقّن من أنهم دخلوا البلاد بالفعل .

سأله مدير الأمن فى حذر :

ـ حتى النيجيرى ؟!

أجابه فى حزم :

ـ حتى النيجيرى .

أشار مدير أمن المطار إلى مساعده ، ليقوم بهذا العمل ، وهو يسأل (حسن) فى قلق واضح :

ـ ولكن لماذا لم تتضمَّن المواصفات ، التى أرسلتموها إلينا ، وصفًا تفصيليًا لملامح وجهه وجنسيته ، كما كنتم تفعلون من قبل ؟!

عقد (حسن) حاجبيه ، وهو يجيب :

ـ لا يمكننا أن نضمن كيف سيبدو .

سأله فى حذر :

ـ أتعنى أنكم لم تتأكَّدوا من هويته بعد ؟!

صمت (حسن) لحظات ، قبل أن يقول :

ـ ربما يدهشك أننا نعرف هويته جيدًا .

غمغم فى دهشة :

ـ ماذا إذن ؟!

زفر (حسن) فى توتر ، وقال :

ـ يمكنك أن تقول : إننا نواجه شبلاً متميزًا .. أحسنوا تدريبه وتربيته ، على نحو مدهش ، وهو الآن يطمح إلى النضوج ، ولعب دور الأسد .

تزايدت دهشة مدير أمن المطار ، وهو يقول :

ـ وهل المفترض أن أفهم هذا ؟!

أجابه (حسن) فى حزم :

ـ كلا .

لم يكد ينطقها ، حتى عاد المساعد ، قائلاً :

ـ لقد عرفنا من المنشود .

التفت إليه الاثنان فى لهفة ، فوضع أمامهما ورقة ، قائلة :

ـ المراجعـة أثبتت صحـة تأشـيرة دخـول النيجيرى ، وأحد الفرنسيين ، أما الثانى فتأشيرته مزوّرة حتمًا ؛ لأنها غير واردة فى سجلاتنا الرسمية .

سأله (حسن) فى لهفة ، وهو يلتقط سمّاعة تليفون مكتب الأمن :

ـ وما اسم الثانى ؟!

أجابه على الفور :

ـ (جان كلود رينيه) .

أسرع (حسن) يطلب رقم مساعده فى الجهاز ، ولم يكد يسمع صوته عبر الهاتف ، حتى قال فى حزم :

ـ اتصل بسفارتنا فى (باريس) فورًا ، واطلب من ملحقنا العسكرى هناك ، أن يبلغ السلطات الفرنسية عن مصرى شاب ، يحمل جواز سفر مزيّف ، باسم (جان كلود رينيه) ، وامنحه أوصاف ابن (صبرى) .

وعندما وضع سمّاعة الهاتف ، كان يشعر أن الحلقة قد بدأت تضيق ، حول تهوّر (أدهم) الشاب ..

وبمنتهى الإحكام .

* * *

5ـ مسألة أمن ..

انعقد حاجبا مدير أمن السفارة الإسرائيلية فى شدة ، وهو يراجع أوراق الشاب الفرنسى الأشقر ، الذى طلب الحصول على تأشيرة دخول إلى (إسرائيل) ، وغمغم ، وهو ينقر صورته بسبَّابته :

ـ مصورٌ جامعى ؟!.. ولماذا يسافر طالب فرنسى إلى (إسرائيل) ، فى موسم الدراسة .

تصاعدت نبرة شك فى أعماقه ، وواصل النقر على صورة الشاب الأشقر بسبَّابته بضع لحظات ، قبل أن يلتقط سمَّاعة هاتفه ، ويطلب رقمًا داخليًا ، ليقول فى لهجة آمرة :

ـ احصل على سجلات كل الجامعات الفرنسية ، ودورات التدريب الخاصة ، التى تقدِّم دروسًا فى التصوير الضوئى ، وابحث فيها جميعًا عن هذا الاسم .

ألقى إليه اسم الشاب ، ثم عاد ينقر بأصابعه على الصورة ، وكأنه يحاول النقر على صاحبها شخصيًا ، ثم لم يلبث أن التقط سمَّاعة هاتفه مرة أخرى ، وقال فى صرامة :

ـ صلنى بـ (تل أبيب) .. أريد التحدُّث إلى أدون (جراهام) .. (دافيد جراهام) .. شخصيًا .

مضت لحظات ، قبل أن يرتفع رنين هاتفه ، فالتقط السمَّاعة ، وقال :

ـ (جونسون) .. من أمن سفارة (باريس) .

أتاه صوت خشن ، يحمل نبرة صرامة ، يقول :

ـ (دافيد جراهام) .. لقد طلبت التحدُّث إلىَّ شخصيًا .

اعتدل (جونسون) فى احترام ، وهو يقول :

ـ بالفعل يا أدون (جراهام) .. أعتقد أنه لدىَّ ما يهمك .

سأله (جراهام) فى اهتمام :

ـ وما هو ؟!

أجابه فى اهتمام أكثر :

ـ لدى هنا شاب ، تقدَّم بطلب الحصول على تأشيرة دخول إلى (إسرائيل) ، وتنطبق عليه المواصفات العمرية والجسدية ، لذلك الشاب الذى طلبت البحث عنه ، والذى أفسد إحدى عملياتنا هنا من قبل .

بدا (جراهام) شديد الاهتمام ، وهو يسأله :

ـ أهو الشاب نفسه ؟!

ارتبك (جونسون) ، وهو يجيب :

ـ لم نتيقَّن بعد ، ولكننا نتحرى أمره .

سأله (جراهام) فى بطء :

ـ وما الذى دفعك إلى الشك فى أمره ؟!

أجابه ، وقد استعاد تماسكه :

ـ لقد طلب السفر إلى (إسرائيل) ، أثناء الدورات الدراسية الرسمية ، وليس فى موسم الصيف .

غمغم (جراهام) :

ـ شك مقبول .

ثم استطرد فى حزم :

ـ ومتى ستتيقَّنون من أمره ؟!

أجابه فى حذر :

ـ خلال دقائق .

لم يكد ينطقها ، حتى دخل أحد مساعديه المكتب ، وهو يشير بيده ، فقال لـ(جراهام) فى لهفة واضحة :

ـ لحظة يا أدون (جراهام) .

والتفت إلى مساعده ، قائلاً :

هناك دارس واحد بهذا الاسم ، ولكنه فى الثالثة والخمسين من عمره .

تألَّقت عينا (جونسون) ، وعاد بسرعة إلى (جراهام) ، قائلاً :

ـ أدون (جراهام) .. لقد تيقَّنَّا .

وصمت لحظة ، ليزيد من تأثير الأمر ، قبل أن يضيف :

ـ إنه زائف .

خُيِّل إليه أن شبكة الهاتف تنقل إليه التماعة عينى (جراهام) ، قبل أن يقول :

ـ اسمعنى جيدًا إذن يا (جونسون) .. سأخبرك كيف تتعامل مع هذا الأمر .

وراحا يتحدثان بعدها بمنتهى الاهتمام ..

لساعة كاملة ..

أو يزيد ..

* * *

أنهى الملحق العسكرى المصرى اتصاله ، مع جهة أمنية فرنسية ، قبل أن يقول فى اهتمام شديد :

ـ لقد توصلنا إليه .. إنه يقيم فى فندق صغير ، بالقرب من الحى اللاتينى .. لقد أعطونى رقم حجرته ، وسنذهب إليه فورًا .

سأله أحد رجال أمن السفارة فى اهتمام :

ـ هل سنلقى القبض عليه ؟!

أجابه ، وهو يسرع إلى الخارج :

ـ كلا .. سنتحفَّظ عليه فحسب ، والسيد (حسن) طلب أن نستخرج له جواز سفر ، أو وثيقة سفر ، لنعيده إلى (القاهرة) .

تبعه اثنان من رجال الأمن ، وانطلق الثلاثة فى سيارة تحمل أرقامًا دبلوماسية ، إلى الحى اللاتينى ، حيث توقَّفت بهم أمام ذلك الفندق الصغير ، فهبط الملحق العسكرى ، وسأل موظف استقبال الفندق :

ـ عندك نزيل يقيم فى الحجرة رقم سبعمائة وعشرة ، تحت اسم (جان كلود رينيه) .. أهو فى حجرته ؟!

أجابه الموظف فى هدوء :

ـ لست أدرى .. لقد تسلَّمت نوبتى منذ أقل من ساعة واحدة ، ولكنه لم يترك مفتاح حجرته هنا ، لذا ..

لم ينتظر الملحق العسكرى حتى يُتِمَّ الرجل حديثه ، وإنما اندفع مع رجليه نحو المصعد ، وأشار الملحق إلى أحدهما ، ليصعد فى درجات السلم ، فى حين استقل هو المصعد مع الثانى ، إلى الطابق السابع ، وعندما التقى الثلاثة ، أمام باب الحجرة ، وقف الرجلان على جانبيها ، فى حين طرق الملحق العسكرى بابها ، وقال بفرنسية سليمة :

ـ خدمة الغرف .

انتظر لحظات ، ثم كرَّر النداء ، وعندما لم يتلق جوابًا ، أشار إلى أحد الرجلين ، فأخرج من جيبه أداة رفيعة ، دسَّها فى ثقب مفتاح الحجرة ، وأدارها على نحو خاص ، فانفتح الباب ، وبقى الرجل فى الخارج ، فى حين دلف الملحق العسكرى مع الرجل الثانى إلى الداخل ، وأغلقا الباب خلفهما ..

ولثوان ، أدار الملحق العسكرى عينيه فى الحجرة ، قبل أن يغمغم :

ـ المكان مرتب ، على نحو يوحى بأنه لم يقض فيه وقتًا طويلاً .

قال الرجل المصاحب له :

ـ يبدو لى أنه لم يقض فيه لحظة واحدة .

توقَّف بصر الملحق العسكرى عند منضدة صغيرة ، مجاورة للفراش ، وهو يقول :

ـ ولكنه ترك جواز سفره هنا .

التقط جواز السفر ، وفتحه ؛ ليلقى نظرة على صورة صاحبه واسمه ، قبل أن يغلقه ، ويقول فى حنق :

ـ لقد خدعنا جميعًا .

سأله الرجل فى قلق :

ـ أهذا ليس جواز سفره ؟!

أجابه فى سخط :

ـ بل هو جواز سفر ، يحمل اسم (جان كلود رينيه) .. أتعلم ما الذى يعنيه تركه له هنا ؟!

أطلّ التساؤل من عينى الرجل ، فأضاف فى غضب :

ـ إنه يسخر منا ، ويبلغنا ، على نحو غير مباشر ، أنه يحمل الآن اسمًا مختلفاً .

سأله الرجل فى دهشة :

ـ أى اسم ؟!

أجابه الملحق العسكرى ، بمنتهى السخط :

ـ من يدرى ؟!

نعم .. من يدرى ؟!..

* * *

« موريس ديلون » ..

نطق (أدهم) الاسم فى هدوء ، وهو يقدِّم ذلك الإيصال ، الذى تسلَّمه من السفارة الإسرائيلية ، إلى مسئول بيوت الشباب فى (باريس) ، والذى راجع الإيصال فى اهتمام ، قبل أن يسأله فى آلية :

ـ أين تقيم يا (موريس) ؟!

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ فى (كاليه) .

أومأ الرجل برأسه متفهمًا ، وهو يسأله :

ـ ولماذا ستسافر إلى (إسرائيل) ؟!

قال (أدهم) :

ـ جدتى لأمى تقيم فى (القدس) ، وسأذهب لزيارتها .

أعاد إليه الرجل ذلك الإيصال ، وقال :

ـ يمكنك أن تقيم هنا ليلتين فحسب ، وعليك أن تبحث عن مكان إقامة بعدها ، لو لم تغادر (باريس) .

غمغم (أدهم) :

ـ لو سارت الأمور على ما يرام ، سأسافر غدًا ليلاً إلى (تل أبيب) .

قال الرجل :

ـ هذا أفضل .. اذهب وابحث عن مكان لنومك .

فى نفس اللحظة ، التى دلف فيها (أدهم) إلى بيت الشباب ، خفض أحد رجال (الموساد) فى (باريس) منظاره عن عينيه ، وقال لزميله ، الذى يقود السيارة :

ـ إنه هو .

سأله زميله فى اهتمام :

ـ هل التقطت له مجموعة صور كافية ؟!

أومأ الأول برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ من كل الزوايا .

قال زميله فى حزم :

ـ فلنرسلها إلى أدون (جراهام) فورًا ، حتى يتخذ القرار بشأنه .

وأخرج مسدسه ، وسحب مشطه ، مستطردًا :

ـ وسننتظر الأمر بالتنفيذ .

وعندما ارتد مشط مسدسه ، مصدرًا ذلك الصوت المعدنى ، كانت عقارب الساعة تشير إلى أن الليلة ما زالت فى بدايتها ..

ويا لها من ليلة !

* * *

انعقد حاجبا (حسن) فى شدة ، وهو يراجع فى ذهنه ، ما أخبره به الملحق العسكرى للسفارة المصرية فى (باريس) ..

وللمرة الأولى ، تثير براعة (أدهم) حنقه ..

لقد كان دومًا شديد الإعجاب به ، ومتابعًا جيدًا لتطوراته ..

وكم أسعده أن يكتسب مهارات جديدة ..

وعديدة ..

وكثيرًا ما كان يشفق على شبابه ، من هذه الحياة القاسية ..

من انشغاله الدائم بتطوير مهاراته وقدراته ، وسعيه الدءوب لامتلاك واكتساب مهارات جديدة ..

حتى ما لم يلقنه إياه والده ..

لقد شغف باللعبة ، وانغمس فيها حتى النخاع ، ولم يعد يفكّر فى سواها ..

صار يبحث عن مهارات جديدة ..

مهارات مدهشة ..

مختلفة ..

ومتباينة ..

وها هو ذا ، فى عمره هذا ، يستخدم ما اكتسبه من مهارات ؛ لخداع الجميع ..

وبلا استثناء ..

« لقد خدعتنى .. »

قالها (حسن) فى غضب ، وهو يواجه (قدرى) ، فى منزل هذا الأخير ، الذى حافظ على تماسك ملامحه ، وهو يهز كتفيه المكتظتين ، قائلاً :

ـ لقد أجبت أسئلتك بكل صدق .

قال (حسن) فى غضب :

ـ أخبرتنى أنك صنعت جواز سفر فرنسيًّا واحدًا .

هزَّ (قدرى) رأسه ، قائلاً :

ـ مطلقًا .. لقد سألتنى عن آخر ما صنعته ، فأخبرتك أنه جواز سفر فرنسى ، وهوية إسرائيلية ، ولكنك لم تسألنى عما صنعته من أجل (أدهم) بالتحديد .

بدا الغضب على وجه (حسن) ، وهو يقول :

ـ حسنًا .. وما الذى صنعته من أجل (أدهم) .

ابتسم (قدرى) فى خبث ، وهو يجيب :

ـ لقد أقسمت ألا أفشى السر .

سأله فى حدة :

ـ كم جواز سفر فرنسى صنعته ، فى الآونة الأخيرة ؟!

أجابه فى هدوء :

ـ اثنان ..

سأله فى اهتمام غاضب :

ـ بأية أسماء .

صمت (قدرى) لحظة ، ثم أجاب فى حذر :

ـ (أدهم) اختار الاسمين .

ضمَّ (حسن) شفتيه فى سخط شديد ..

من الواضح أن (قدرى) لن يفشى السر ..

لن يخون (أدهم) قط ..

مهما حدث ..

ومهما كان ما يتعرَّض له ..

وكمحاولة أخيرة ، قال (حسن) فى صرامة :

ـ أستطيع إيقاف التحاقك بالمخابرات .

هزَّ (قدرى) كتفيه مرة أخرى ، وقال :

ـ لا بأس .. أنا لم أسع إليكم .

قال (حسن) فى حدة :

ـ ألا يعنيك أن تلتحق بجهاز المخابرات ؟!

قال (قدرى) فى هدوء :

ـ يعنينى كثيرًا بالتأكيد ، ولكنه لا يساوى أن أخون صديقًا .

كاد (حسن) يصرخ فى وجهه ، مهدداً إياه بالفصل المسبق من المخابرات ..

ولكن عقله أوقفه ..

كم هو رائع هذا النموذج ، الذى يراه أمامه ..

إنه لم يتردَّد لحظة فى التضحية بفرصة عمره ، حتى لا يخون صديقه ..

فماذا سيفعل من أجل وطنه ؟!..

وعلى الرغم من غضبه وحنقه ، أدرك أن هذا بالضبط هو النموذج ، الذى يبحثون عنه .

النموذج البارع ..

الواثق ..

العنيد ..

والمخلص ..

وفى لهجة مريرة ، غمغم (حسن) :

ـ أتدرك ما الذى يمكن أن يواجهه صديقك ، فى حماقته هذه ؟!

صمت (قدرى) لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء وخفوت :

ـ خطر الموت .

سأله (حسن) :

ـ ألا ترغب فى إنقاذه من هذا ؟!

هتف (قدرى) بسرعة فى انفعال :

ـ وبشدة .

ثم تراجع ، مستطردًا فى أسى :

ـ ولكننى لا أستطيع اعتراض طريقه .

غمغم (حسن) :

ـ حتى لو ...

قاطعه (قدرى) فى توتر :

ـ أيًا كانت النتائج .. أنا أؤمن به ، وبقدرته على حسن تقييم الأمور ، والتعامل معها ، وما دام قد اتخذ قرارًا ، فلا توجد قوة فى الأرض ، يمكنها منعه من تنفيذه .

تطلَّع إليه (حسن) لحظة ، ثم قال فى حزم :

ـ أتعتقد هذا ؟!

أجابه (قدرى) دون تردُّد :

ـ بالتأكيد .

نهض (حسن) ، قائلاً فى صرامة :

ـ سنرى .

قالها ، وانصرف كالعاصفة ، تاركًا (قدرى) خلفه ، يتساءل فى قلق شديد ..

ترى هل يمكن أن يواجه (أدهم) وحده كل هذا ؟!..

هل ؟!..

* * *

فى تلك الآونة ، لم تكن أجهزة الفاكس معروفة ، ولم تكن هناك شبكة إنترنت ، سوى فى الاستخدامات العسكرية السرية المحدودة ، فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها(*) ، لذا فقد تم إرسال الصورة بالراديو ، وهى وسيلة نقطية قديمة ، ترسل الصورة لاسلكيًا ، نقطة

(*) حقيقة .

بنقطة ، لذا فعندما تسلَّمها (جراهام) لم تكن بالدقة الكافية ، إلا أنه نقلها إلى قسم خاص فى (الموساد) ، مهمته هى توضيح الصورة النقطية إلى أقصى حد ممكن .. وعندما عادت إليه الصور بعدها ، استدعى خبيرًا خاصًا إلى مكتبه ، وراح معه يراجعان الصور بعدسة خاصة ، ويقارناها بالرسوم ، التى صنعها فريق مستعربى (الموساد) ، للشاب الذى أفسد عمليتهم سابقًا(*) .

وبعد نصف ساعة من الفحص والتدقيق ، اعتدل الخبير ، قائلاً فى حسم :

ـ إنه هو .

تألَّقت عينا (جراهام) ، وهو يقول :

ـ عظيم .. لقد أثلجت صدرى .

ثم التقط جهاز الهاتف ، وقال عبره فى حزم :

ـ تم تعرُّف العنصر المعادى .. اعملوا على تصفيته فورًا .

قالها ، وهو يعلم أن أوامره ستصل إلى فريق الاغتيالات ، خلال دقائق معدودة ، وبعدها ، ستنتهى العملية .. الليلة ..

* * *

(*) راجع الأعداد السابقة .

التمعت عينا قاتل (الموساد) المحترف ، عندما تلقى الأمر بتصفية (أدهم) فورًا ، وربَّت على مسدسه ، المختفى خلف سترته ، وقال لزميله :

ـ عظيم .. تمنَّ لى حظًا موفقًا .

همهم زميله بكلمات مبهمة ، وأشاح بوجهه فى توتر ، فابتسم القاتل ، وغادر السيارة ، واتجه نحو بيت الشباب فى هدوء ، ودفع الباب فى رفق ، وهو يدخل إلى حجرة مسئول المكان ، قائلاً :

ـ ليلة سعيدة .. أين يقطن (موريس ديلون) ، ذلك الشاب الأشقر ، الذى وصل منذ ساعة تقريبًا .

سأله المسئول فى شك :

ـ وما صلتك به ؟!

أجابه فى هدوء ، وبابتسامة أنيقة :

ـ صلة وثيقة للغاية .

سأله الرجل ، فى شك صارم :

ـ هل يمكنك إثباتها ؟!

أجابه بنفس الابتسامة الهادئة :

ـ بالتأكيد .

واستل مسدسه ، وألصق فوهته بجبهة الرجل ، مستطردًا :

ـ هل علمت صلتى به الآن ؟!.. أنا قاتله .

ارتعدت أوصال الرجل ، وكاد يسقط فاقد الوعى ، وهو يقول :

ـ إنه .. إنه فى الحجرة الرابعة .. الفراش السفلى الأيمن .

هزّ القاتل رأسه ، دون أن يفقد ابتسامته ، وقال :

ـ لست أدرى ماذا أقول .

وضغط زناد مسدسه ، المزوّد بكاتم للصوت ، فى هدوء شديد ، فصدرت منه فرقعة مكتومة شديدة الخفوت ، امتزجت بصوت اختراق الرصاصة لجمجمة الرجل ، الذى سقط جثة هامدة ، دون أن يصدر عنه أدنى صوت ..

وفى هدوء عجيب ، تراجع القاتل ، قائلاً :

ـ شكراً على أية حال .

ثم استدار ، واتجه إلى الممر ، الذى يضم حجرات الشباب ، وهو يستعد بمسدسه ، وتلك الابتسامة المقيتة على شفتيه ..

وبدأت الليلة ..

الرهيبة .

* * *

6ـ ليـلة الـدم ..

راجع الملحق العسكرى ، فى سفارة (مصر) فى (باريس) ، تقارير الأمن والمتابعة اليومية ، ثم قال لمساعده فى اهتمام :

ـ إذن فلم تعثروا عليه .

أجابه مساعده :

ـ كل رجالنا معهم نشرة بأوصافه ، ويبحثون عنه فى كل شبر من العاصمة ، وسيواصلون بحثهم دون توقُّف ، حتى آخر لحظة .

سأله :

ـ وماذا عن مطار (أورلى) ؟!

أجابه فى حسم :

ـ اثنان من رجالنا هناك ، ويراجعون قوائم المسافرين ، بالتعاون مع السلطات الفرنسية طوال الوقت .

تنهَّد الملحق العسكرى ، مغمغمًا :

ـ أتعشَّم أن يسفر هذا عن نتائج إيجابية .

واصل مراجعة التقارير ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ الإسرائيليون نشطون الليلة .. هناك تقرير يقول : إن أحد قتلتهم هنا .

قال مساعده مؤيدًا :

ـ لقد تم رصده فى أحد الضواحى ، أمام مجمَّع بيوت الشباب .

انعقد حاجبا الملحق العسكرى فى شدة ، وهو يردِّد :

ـ بيوت الشباب .

تراجع فى مقعده ، وشبَّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يدرس كل المعطيات فى عمق .. وبسرعة ، ربط عقله بين كل المعطيات ..

(أدهم) ..

والإسرائيليون ..

وقاتل محترف ..

وبيوت شباب ..

وفى لحظة واحدة ، التحمت المعطيات كلها فى رأسه ، فهب من خلف مكتبه ، وفتح أحد الأدراج ، والتقط منه مسدسًا ، دسه فى حزامه ، وهو يقول لمساعده فى حزم :

ـ أريد فريقًا من طاقم الأمن الخاص .. سنتجه فورًا إلى منطقة بيوت الشباب .

سأله مساعده فى قلق :

ـ هل تعتقد ..

أجابه ، قبل حتى أن يتم سؤاله :

ـ لا يوجد تفسير سوى هذا .

واندفع نحو الباب ، مستطردًا فى توتر :

ـ المهم أن نصل فى الوقت المناسب .

نعم .. ليس المهم أن يصلوا ..

المهم أن يتم هذا بسرعة ..

وفى الوقت المناسب ..

* * *

عبر قاتل (الموساد) المحترف ممر حجرات النوم ، فى خطوات واسعة سريعة ، حتى بلغ الحجرة الرابعة ، فابتسم ابتسامة ساخرة ، وغمغم :

ـ أتعشَّم أن يروق لك الجحيم ، أيها المصرى .

ودفع الباب بقدمه فى عنف ، ووثب داخل الحجرة ، أطلق ثلاث رصاصات صامتة ، على الفراش الأيمن السفلى ، و ...

وفجأة ، انقض عليه (أدهم) ، من الفراش الأيسر العلوى في عنف ، وهو يقول :

ـ أخطأت يا هذا .

اختلَّ توازن القاتل المحترف ، مع انقضاضة (أدهم) ، فاندفع إلى الأمام ، وارتطم بالفراش المزدوج أمامه ، وعندما ارتد عنه ؛ ليواجه خصمه ، ركل (أدهم) المسدس من يده ، صائحًا :

ـ إلى الخارج .

مع صيحته ، اندفع ثلاثة شباب من تحت الأسرة ، وغادروا الحجرة الصغيرة في رعب هائل ، في حين انقض القاتل على (أدهم) ، صائحاً :

ـ هل تتصوَّر نفسك بارعًا أيها المصرى ؟!

وهوى على وجهه بلكمة عنيفة ، مستطردًا :

ـ هيهات .

كانت اللكمة كفيلة بتحطيم أسنان (أدهم) ، إلا أنه مال بحركة بارعة ، متجاوزاً تلك اللكمة ، ليختل توازن القاتل المحترف مرة ثانية ، فيستقبله (أدهم) بلكمة عنيفة في أنفه ، وهو يقول :

ـ لست أتصوَّر هذا .

ثم أعقبها بثانية أكثر عنفًا فى فكه ، مستطردًا :

ـ بل أثق فى هذا .

غامت الدنيا أمام عينى قاتل (الموساد) ، وحاول أن يبحث عن مسدسه ، الذى سقط من يده ، مع ارتطامه بالفراش المزدوج ، ولكن (أدهم) ركل المسدس بعيدًا ، وهو يقول :

ـ يمكنك أن تنساه .

ثم كال له لكمة ثالثة ، مردفًا :

ـ ودعنا نرى مهارتك اليدوية .

استقبل قاتل (الموساد) اللكمة فى راحته ، على الرغم من قوتها ، وهو يقول فى غضب صارم :

ـ لا بأس .. ما دامت هذه رغبتك .

وفى حركة مباغتة ، ركل (أدهم) فى ساقه ركلة عنيفة ، أعقبها بلكمة فى فكه ، ألقت (أدهم) على الفراش المجاور ، فمال الرجل فى سرعة ؛ ليلتقط مسدسه ، وهو يقول فى حدة :

ـ ولكن الدرس سيكون قاسيًا .

فى نفس اللحظة ، التى أمسكت فيها أصابعه مسدسه ، وثب (أدهم) بحركة شديدة المرونة ، فارتد عن الفراش ، وقفز متعلقاً بعنق القاتل ، وهو يهتف :

ـ كم أتوق لهذا .

دار القاتل حول نفسه فى غضب ، محاولاً الإفلات من (أدهم) ، المتعلق بعنقه ، والذى يضغط عليه فى قوة ، وراح يطلق رصاصات مسدسه فى ثورة ، فانطلقت الرصاصات الصامتة تغوص فى السقف والجدران ، ثم لم يلبث أن تراجع إلى الخلف ، فى حركة سريعة ، ليضرب (أدهم) فى الجدار فى عنف مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ولكن (أدهم) ظلّ متشبثًا بعنقه ..

وبمنتهى القوة ..

ولقد شعر القاتل بأنه يختنق ..

ويختنق ..

ويختنق ..

لذا ، فقد استل من جيبه خنجراً حاداً ، رفعه بحركة يائسة أخيرة ، ليطعن (أدهم) فى يده ، وما إن لمح (أدهم) هذا ، حتى أفلت يده فى سرعة ، ودفع القاتل بقدمه فى ظهره بعنف ، ليلقيه على الفراش المواجه ..

وفى سرعة مدهشة ، اعتدل القاتل ، ودار ليواجه (أدهم) ، وصرخ وهو يصوِّب إليه مسدسه :

ـ خسرت أيها المصرى .

وضغط الزناد ..

بكل قوته ..

* * *

جلس رجل (الموساد) الثانى متوترًا ، داخل تلك السيارة ، خارج بيوت الشباب الفرنسية ، وألقى نظرة عصبية على ساعته ، مغمغمًا :

ـ ماذا يفعل كل هذا الوقت ؟!.. لقد تخلَّص من آخر عملية ، فى نصف هذا الوقت .

كان يلقى نظرة أخرى على ساعته ، عندما شعر بفوهة باردة تلتصق بعنقه ، وخلفها صوت صارم ، يقول :

ـ أراهن أنك هنا لغرض حقير .

انتفض رجل (الموساد) ، وأدار بصره فى عصبية ، ليجد

الملحق العسكرى واقفًا ، ويداه فى جيبى معطفه ، وإلى جواره أحد رجال الأمن الخاص للسفارة ، وهو الذى يلصق فوهة المسدس بعنقه ، فقال فى توتر :

ـ ليس من المفترض أن تفعلوا هذا هنا ؟!

أجابه الملحق العسكرى فى صرامة :

ـ أمور عديدة ليس من المفترض أن تحدث ، ولكنها تحدث .

ثم سأله فى قسوة :

ـ أين زميلك القاتل ؟!

أجابه رجل (الموساد) فى عصبية :

ـ ابحث عنه بنفسك .

تجاهل الملحق العسكرى جوابه ، وأشار إلى اثنين آخرين ، من رجال الأمن الخاص ، فاندفعا نحو بيوت الشباب ، وهما يستلان مسدسيهما فى تحفز ، فى حين التفت هو إلى الإسرائيلى ، قائلاً :

ـ تمن لو أن زميلك لم يتم مهمته الحقيرة ، فلو أنه فعلها ، فلن أجد من أقتص منه سواك .

هتف رجل (الموساد) فى عصبية :

ـ ليس هذا من حقك .

أجابه الملحق العسكرى فى حدة :

ـ وماذا عن قتل الشباب العربى ؟!.. أهو من حقكم ؟!

عقد الإسرائيلى حاجبيه ، دون أن ينطق بكلمة ، أو يحاول مجادلة الملحق العسكرى ، الذى أدار عينيه إلى مدخل بيوت الشباب ، فى ترقُّب متوتر ، وهو يتساءل : هل وصلوا بالفعل فى الوقت المناسب .. هل ؟!..

ولم يكد التساؤل يستقر فى ذهنه ، حتى ردَّد المكان كله دوى رصاصة ..

رصاصة قاتلة ، ربما تعنى أن قاتل (الموساد) قد أنجز مهمته .. بنجاح .

* * *

حتى عندما خطَّط (دافيد جراهام) لاغتيال (صبرى) فى (لندن) ، وربما على مدار حياته كلها ، لم يشعر أبدًا بمثل هذا التوتر ، الذى سيَّطر على كيانه كله ، وهو ينتظر أخبار اغتيال (أدهم) الشاب فى (باريس) ..

شىء ما فى أعماقه كان يختلف هذه المرة ..

يختلف تمامًا ..

شىء ما ، كان ينبئه بأن هذه العملية ، علـى الرغم ممـا تبـدو عليه من بساطة ، لن تمر بيسر ، كمعظم العمليات قبلها ..

ومن الناحية المنطقية ، لم يكن لديه سبب لهذا الشعور ..

أى سبب ..

ولكنها حاسة خاصة ..

ليست حاسة رجل مخابرات ، بل غريزة ذئب ..

ذئب وحشى مفترس ، اعتاد دراسة خصمه وتقييمه جيدًا ، قبل الدخول معه فى معركة مباشرة ..

وخصمه ، على الرغم من صغر سنه ، كان يبدو قويًّا ..

خبيثًا ..

بارعًا ..

ومراوغًا ..

ثم إن الجرأة التى أبداها من قبل ، كـانت توحى بأنـه سيقاتل باستماتة ..

وحتى آخر رمق ..

العزاء الوحيد ، هو أن من أرسله لاغتيالـه ، واحد من أقوى وأمهر وأبرع قتلة (الموساد) ، الذين ربما لم يفشلوا فـى مهمـة من قبل قط ..

وملفه يقول : إنه سينجح ، فى هذه المرة أيضًا ..

بكل المقاييس ..

لماذا يشعر إذن بكل هذا القلق والتوتر ؟!..

لماذا ؟!..

لماذا ؟!..

لم يستطع حسم أمر نفسه ، فهزَّ رأسه فى قوة ، وكأنما يطرد منها الفكرة ، ثم التقط سمَّاعة هـاتفه ، وطلب رقمًا داخليًا ، ولـم يكد يسمع صوت محدثه ، حتى قال فى صرامة خشنة :

ـ هل وصلت أخبار من (باريس) ؟!

أتاه صوت محدِّثه ، يقول فى سرعة :

ـ لقد تسلمنا برقية مشفرة ، من مسئول المتابعـة هنـاك ، ولـم تتم ترجمتها بعد .

قاوم (جراهام) توتره ، وهو يقول :

ـ أرسلها لى فور ترجمتها .

وأنهى الاتصال ، قبل حتى أن يستمع إلى الرد ، ثم التقط ملـف القاتل المحترف ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ لم يفشل فى مهمة قط .

كان يحاول مراجعة الملف للمرة الخامسة ، عندما رن هاتفـه ، فالتقط سمّاعته فى لهفـة ، متصورًا أنه مسئول الشفرة ، ولكنـه فوجئ بمدير (الموساد) ، يقول فى لهجة أقرب إلى الصرامة :

ـ (جراهام) .. احضر إلى مكتبى فورًا .

انعقد حاجباه ، وهو يغمغم :

ـ كما تأمر .

أنهى المحادثة ، وعاد حاجباه ينعقدان ، وهو يتجه إلى مكتب المدير ، وفى رأسه تدور عدة أفكار متداخلة ..

لماذا هذا الاستدعاء العاجل الآن ؟!..

أهو أمر يخص عملية (باريس) ، أم ماذا ؟!..

وصل إلى مكتب المدير ، قبل أن تُحسم كل الأسئلة فى رأسـه ، وغمغم وهو يدلف إليه متوترًا :

ـ لقد وصلت بأسرع ما يمكننى .

تجاهل المدير عبارته ، وهو يقول فى حماس عجيب :

ـ لقد بدأنا .

توقَّف يسأله فى حذر :

ـ بدأنا ماذا ؟!

مال المدير نحوه ، مجيبًا بنفس الحماس :

ـ الاغتيالات .

انعقد حاجبا (جراهام) فى توتر ، سرى فى كيانه كلـه ، وهو يحدّق فى وجه المدير ، وقد خطر بباله أنـه يشير إلى عمليـة (باريس) بالتحديد ..

وفى عصبية ، أشار بيده ، قائلاً :

ـ عملية (باريس) ليست ..

قاطعه المدير فى دهشة :

ـ أية عملية ؟!

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ الاغتيال سيتم هنا .. فى (القدس) .

تراجع (جراهام) بحركة حادة ، قائلاً فى استنكار :

ـ فى القدس ؟!

التقط المدير ورقة من سطح مكتبه ، ودفعها نحو (جراهام) ، قائلاً :

ـ سنغتال هذا .

حدّق (جراهام) فى الورقة بدهشة ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ هذا بالذات ، لا يمكننا اغتياله فى (القدس) .

قال المدير ، فى حدة أكثر :

ـ ولماذا ؟!

أجابه ، وقد تجاهل فارق المنصب :

ـ لأنه المتحدّث الرسمى باسم الفلسطينيين ، واغتياله هنا سيشير بأصابع الاتهام إلينا مباشرة ، ولن يمكننا حتى أن ندّعى البراءة .

كان هذا بالضبط ما ينشده مدير (الموساد) ، الذى قال فى صرامة :

ـ خطأ .. ستغتاله مجموعة من المستعربين ، على نحو يوحى بأنه خلاف فلسطينى فلسطينى ، و ...

قاطعه (جراهام) :

ـ مستحيل !!.. هذا الرجل بالذات ، يحظى بتأييد معظم الفصائل ، و ...

قاطعه دخول سكرتير المدير ، الذى ارتبك قائلاً :

ـ معذرة ، ولكن قسم الشفرة يقول : إنها برقية عاجلة من (باريس) ، ولابد وأن تصل إلى أدون (جراهام) فورًا .

اختطف (جراهام) البرقية من يده اختطافاً ، والتهم كلماتها القليلة فى لهفة ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ..

لقد دخل المصريون اللعبة فى (باريس) ..

الآن أدرك لماذا يشعر بالقلق والتوتر ..

الآن فقط ..

* * *

لم يكد دوى الرصاصة ينطلق ، داخل بيت الشباب الباريسى ، حتى انعقد حاجبا الملحق العسكرى المصرى فى شدة ، وهوى بمسدسه على رأس رجل (الموساد) الثانى ، وهو يقول فى عصبية :

ـ الوقت لن يتسع لك .

قالها ، واندفع نحو بيت الشباب ، مع من تبقى معه ، قبل حتى أن يسقط رأس رجل (الموساد) على مقود سيارته ، وانطلق يعدو عبر ممرات المكان ..

وقع بصره فى البداية على المسئول ، المصاب برصاصة فى جبهته ، ولكنه لم يتوقف عنده لحظة واحدة .

إنه يبحث عن (أدهم) ..

فقط (أدهم) ..

وعندما بلغ تلك الحجرة ، التى تنبعث منها جلبة واضحة ، وثب داخلها ، وهو يشهر مسدسه فى تحفز ، ثم توقف عندما رأى رجليه هناك ، وأحدهما يتصاعد الدخان من فوهة مسدسه ، فى حين سقط قاتل (الموساد) بينهما صريعاً ، والدماء تسيل من ثقب فى رأسه ، فقال فى توتر شديد :

ـ لقد تطورت الأمور ، أكثر مما ينبغى .. لن تمضى دقائق ، حتى يكتظ المكان برجال الشرطة الفرنسية .

هز الرجل رأسه ، وهو يعيد مسدسه إلى غمده ، قائلاً :

ـ لم يكن هناك مفر .. كان يهم بإطلاق النار على الشاب ، الذى

أتينا من أجله ، وعندما رآنا ، أدار فوهة مسدسه نحوى ، وكان من الطبيعى أن ..

أشار إليه الملحق العسكرى ، يستوقفه قائلاً :

ـ أين الشاب إذن ؟!

تلفت الرجلان حولهما ، وقال الثانى فى دهشة :

ـ كان هنا ، قبل لحظة واحدة من وصولك !

شعر الملحق العسكرى بدهشة عارمة ، وهو يتلفت حوله ، مغمغمًا فى غضب :

ـ مستحيل !

تناهى إلى مسامعهم صوت أبواق سيارات الشرطة الفرنسية تقترب ، فقال فى عصبية :

ـ لا مفر .. لابد وأن ننصرف على الفور .

سأله أحد رجاله ، وهم يندفعون خارج المكان :

ـ وماذا عن الشاب ؟!

أجابه فى توتر :

ـ سنواصل البحث عنه .

سأله آخر فى حيرة :

ـ أين ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقفز فى سيارته ، مجيبًا :

ـ سننبش (باريس) كلها .

وانطلقت بهما السيارة ، قبيل لحظات من وصول الشرطة الفرنسية ، وهو يستدرك فى عصبية :

ـ مضطرين .

لم يكن يدرى كيف اختفى (أدهم) ، دون أن ينتبه إليه محترفون مثلهم ؟!

كيف ؟!..

كيف ؟!

* * *

7ـ الليـــل ..

« ماذا تعنى بأنكم قد فقدتم أثره ؟!.. »

ألقى (حسن) السؤال فى غضب هادر ، وقبضته تكاد تعتصر سمّاعة الهاتف ، واشتعلت فى أعماقه جذوة رجل المخابرات ، فسيطر على أعصابه ، وهو يستطرد :

ـ كيف هرب منكم ؟!

أجابه الملحق العسكرى لسفارتنا فى باريس ، وهو يشعر بضيق ، أقرب إلى الاختناق :

ـ لا أحد يدرى .. لقد وصلنا فى الوقت المناسب ، وأنقذناه من أحد أخطر قتلة (الموساد) ، ثم فوجئنا بأنه ليس بيننا .. ولقد مشّطنا معظم شوارع (باريس) ، حتى مطلع الفجر ، ولم نعثر له على أدنى أثر .

انعقد حاجبا (حسن) فى ضيق ، وهو يقول :

ـ هل تبخّر أم ماذا ؟!

غمغم الملحق العسكرى :

ـ يبدو أنه تلقَّى تدريبًا كبيرًا ، على التخفى وسط المدن ، على الرغم من صغر سنه .

تمتم (حسن) فى حنق :

ـ هذا صحيح .

قال الملحق العسكرى :

ـ ولكن هناك نقطة إيجابية واحدة .

سأله فى لهفة :

ـ وما هى ؟!

أجابه فى سرعة ، وكأنما وجد فى هذه الإيجابية الوحيدة مخرجًا :

ـ لقد عرفنا الاسم ، الذى يتعامل به .

سأله (حسن) ، فى لهفة أكثر :

ـ وما هو ؟!

أجاب بنفس السرعة :

ـ (موريس ديلون) .

وازداد انعقاد حاجبى (حسن) ..

لقد تدرَّب (أدهم) جيدًا بالفعل ..

تدرَّب على يد والده ..

وذلك العميد العبقرى ..

لم يتدرَّب لاكتساب مهارات قتالية فحسب ..

ولكن لاكتساب القدرة على التخطيط والتدبر أيضًا ..

ومن الواضح أن موهبته قد ساعدته كثيرًا فى المضمارين ..

إنه يقاتل ، وهو دون العشرين ، كما لو كان رجل عمليات خاصة ، فى أواخر العشرينات من العمر ..

ويخطِّط كخبير محنَّك ..

من والده ، اكتسب حكمة القتال بأعصاب هادئة ، وتروٍّ مدروس ..

ومن العميد ، اكتسب مهارة وضع الخطط المتكاملة ، وسد كل الثغرات المحتملة .. وحتى غير المحتملة ..

لهذا سافر بجواز سفر ، يحمل اسمًا مختلفًا ، عن الاسم الذى ينوى استخدامه هناك ..

فى قلب (باريس) .

ولكن حتى خطته المتقنة هذه ، تحوى ثغرة ..

ثغرة كبيرة ..

تلك الثغرة ، التى تتواجد حتمًا ، فى كل نظام أمنى ، مهما بلغت دقته ..

ومهما بلغ إحكامه ..

ففى (باريس) ، سيحمل اسم (موريس ديلون) ..

وسيحصل على تأشيرة دخول (إسرائيل) ..

ويسافر إليها ..

بالاسم نفسه ..

وهذه نقطة ضعف ..

كبيرة ..

« أريدك أن تراقب مطار (أورلى) جيدًا .. »

نطقها (حسن) بمنتهى الصرامة ، فاعتدل الملحق العسكرى فى (باريس) ، وتساءل بكل اهتمامه :

ـ هل تعتقد أنه سيسافر بالاسم نفسه ؟!

أجابه (حسن) فى حزم :

ـ ليس أمامه سوى هذا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى توتر :

ـ من حسن حظنا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان مسئول أمن السفارة الإسرائيلية يواجه مفتش الشرطة الفرنسى (آلان) ، قائلاً فى توتر :

ـ لا .. هذا الرجل ، الذى تحمل صورته ، لا يعمل فى سفارتنا هنا .. بل ربما لا يكون حتى إسرائيليًا .

مال المفتش (آلان) نحوه ، قائلاً ، فى شىء من الصرامة :

ـ كيف تفسر مصرعه فى بيت الشباب إذن ، وهو يحمل جواز سفر دبلوماسيًا ؟!

هزّ مسئول الأمن كتفيه ، وقال :

ـ هل تأكّدتم أوّلاً ، من أنه جواز سفر صحيح ؟!

صمت مفتش الشرطة الفرنسى لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ نعمل على هذا الآن .

شد مسئول الأمن قامته ، وقال ، وقد استعاد بعض الثقة :

ـ أثبت صحة انتمائه إلينا أوَّلاً إذن ، ثم عد إلى هنا .

حدَّق المفتش (آلان) فى وجهه بضع لحظات ، ثم أشعل سيجارة فرنسية قصيرة ، وقال فى صرامة :

ـ الواقع أنها كانت ليلة طويلة بالفعل .. بدأت ببلاغ عن دوى رصاصة ، فى بيت الشباب الرئيسى ، مما جعلنا نسرع إلى هناك ، حيث وجدنا سيارة تقف أمام بيت الشباب ، وبداخلها شخص فاقد الوعى ، مصاب بضربة عنيفة على رأسه ، ويحمل جواز سفر إسرائيلى دبلوماسى ، وداخل بيت الشباب نفسه ، عثرنا على جثة المسئول الليلى ، مصابًا برصاصة فى جبهته ، وعلى جثة إسرائيلى آخر ، يحمل جواز سفر دبلوماسيًّا أيضًا ، مصابًا برصاصة فى رأسه ، داخل إحدى حجرات المكان ، ولقد روى لنا الشباب المذعور قصة ، تبدو أشبه بالمغامرات السينمائية ، وعلى الرغم من غرابتها ، اتفق الكل على صحتها ، وأخبرنا شاب إسرائيلى ، من نزلاء البيت ، أن بطليها كانا يتحدثان بالعبرية ، مما يشير إلى صحة جواز سفر الصريع .

سأله مسئول الأمن فى حذر :

ـ وماذا عن الثانى ؟!

رمقه المفتش (آلان) بنظرة حذرة ، وهو يجيب :

ـ كان شابًا مراهقًا ، ولكنهم يؤكدون أنه كان يقاتل كأربع المحترفين .

قال مسئول الأمن الإسرائيلى فى بطء :

ـ وما أدراهم ؟!

تطلَّع إليه المفتش ، بنظرة متوترة متسائلة ، جعلته يستطرد :

ـ ما أدراهم أنه يقاتل كالمحترفين ؟!

انعقد حاجبا المفتش ، وهو يقول صارمًا :

ـ لم يكن قتالاً عاديًا ، على أية حال .

هزَّ مسئول الأمن الإسرائيلى رأسه ، ثم قال بكل الصرامة :

ـ ليس لدىَّ ما أجيبك به ، فى كل الأحوال .

صمت المفتش لحظات ، ثم غمغم :

ـ هذا ما توقَّعته .

ثم مال نحوه ، مضيفًا فى صرامة :

ـ ولكن لو بلغتك أية معلومات ، فأنا أتوقَّع أن ..

قاطعه مسئول الأمن فى صرامة :

ـ أنا أتوقَّع اتصالاً رسميًا ، من وزارة خارجيتكم .

تراجع المفتش ، وقد استوعب المعنى ، وغمغم :

ـ بالتأكيد .

ثم غادر المكان ، دون كلمة إضافية ، فغمغم مسئول الأمن فى سخط :

ـ مجرَّد فتى .

واندفع عائدًا إلى مكتبه ، ثم التقط سماعة هاتف داخلى ، وقال فى عصبية :

ـ إنه الفجر ، ولم تعثروا على ذلك الشاب بعد .

أتاه صوت مساعده ، يقول فى توتر :

ـ ليس له أدنى أثر .. لقد ..

قاطعه فى غضب :

ـ لا أريد سماع التفاصيل .. (تل أبيب) تطلب ذلك الشاب ، ولابد وأن تحصل عليه .

غمغم مساعده :

ـ لقد أطلقنا كافة رجالنا ، ونبذل قصارى جهدنا .

قال مسئول الأمن فى حدة :

ـ من الواضح أن هذا لا يكفى .

صمت المساعد تمامًا ، وهو لا يجد بالفعل جوابًا مناسبًا ، فتابع مسئول الأمن بنفس الحدة :

ـ خذ كل ما يلزمك من مال ورجال .. ارش كل من يمكنك رشوته ، وأبعد كل من يعترض طريقك ، وراقب السفارة ، والمطار ، وكل مكان يتردَّد عليه غرباء .. أريد هذا الشاب بأى ثمن .. هل تفهم .. بأى ثمن .

سأله المساعد فى تردُّد :

ـ حيًّا أم ميتًا .

وهنا صمت مسئول الأمن تمامًا ..

لقد أخبره أدون (جراهام) أنه يريد هذا الشاب ، ولكنه لم يحدِّد قط ..

حيًّا ..

أم ميتًا ؟!..

أم ماذا ؟!..

ماذا ؟!

* * *

« أريده حيًا بالطبع .. »

أجاب (جراهام) سؤال مسئول أمن سفارة (إسرائيل) فى (باريس) ، فى حدة شديدة ، جعلت هذا الأخير يرتبك ، وهو يغمغم :

ـ ولكنك فيما مضى أرسلت قاتلاً محترفًا لـ ...

قاطعه (جراهام) فى حدة :

ـ كان هذا فيما مضى .

سأله مسئول الأمن فى حذر :

ـ وماذا تغيَّر ؟!

أجابه فى غضب :

ـ المصريون دخلوا اللعبة ، ويبحثون عن الشاب أيضًا ، مما يوحى بأنه يمثل لهم أهمية كبيرة .. والسؤال هو : لو أنه ينتمى إليهم ، ويدين لهم بالولاء ، فلماذا يبحثون عنه ؟!.. ولماذا يفر هو منهم ؟!

بدا الأمر محيراً بالفعل لمسئول الأمن ، الذى غمغم :

ـ نعم .. لماذا ؟!

قال (جراهام) فى سرعة :

ـ هذا ما ينبغى أن نحصل على جوابه ، ولا يمكننا التخلُّص من ذلك الشاب ، قبل أن تعرف أية أهمية يمثلها للمصريين .

قال الرجل فى حماس :

ـ فهمت .

أجابه (جراهام) فى صرامة :

ـ ابحث إذن عن ذلك الشاب ، واحرص على أن تصل إليه قبل المصريين ، واحرص أكثر على أن يظل حيًا .

قال مسئول الأمن فى حزم :

ـ سأبذل قصارى جهدى .

أنهى (جراهام) الاتصال ، وتراجع فى مقعده ، يعيد دراسة الأمر كله منذ البداية ..

لقد ظهر ذلك الشاب فى (باريس) من قبل ، وأفسد عملية كاملة لمستعربى (الموساد) ، دون أن يعرف أحد من هو بالضبط ؟!..

ثم اختفى ..

كانوا يعرفون أنه مصرى ..

وأنه ما زال لم يجتز مرحلة المراهقة ..

وأنه يجيد القتال والمواجهة ، كألف ألف رجل ..

ولكنهم يجهلون تمامًا من هو !..

وكيف اكتسب كل هذا ، فى سنوات عمره القليلة ..

كيف ؟!..

كيف ؟!..

وعندما تصوَّروا أنه قد ذهب بلا عودة ، فوجئوا به يظهر مرة ثانية ..

وكما اختفى .. فجأة ..

فى المرة الأولى كان يحمل اسم (أدهم صبرى) ..

ولكنه ليس اسمه الحقيقى ..

ليس كذلك حتمًا ..

صحيح أن جواز سفره كان يحمله ..

ولكن ها هو ذا يحمل جواز سفر آخر ، باسم مختلف هذه المرة ..

جواز مثل اسمه .. فرنسى ..

من الواضح إذن أنه يحمل دومًا أسماءً مختلفة ، وجوازات سفر متعدِّدة ..

تمامًا مثل أى محترف ..

ولكنه ما زال صغير السن ..

وهذا فى حد ذاته لغز ..

لغز يحتاج إلى جواب ..

وإلى الإيقاع بذلك الشاب ..

وبأى ثمن ..

صمت لحظات مفكرًا فى عمق ، قبل أن يضغط زرًا على سطح مكتبه ، قائلاً فى صرامة :

- أريد تذكرة بالدرجة الأولى ، على متن أوَّل طائرة ، تغادر (تل أبيب) ..

سأله مساعده فى اهتمام :

- إلى أين ؟!

أجابه بمنتهى الصرامة :

- (باريس) .

ثم أنهى الاتصال ، وعاد يتراجع فى مقعده ، ويعيد دراسة الأمر كله فى رأسه ..

ألف مرة ..

* * *

لو أن السفارة الإسرائيلية تعرَّضت لتهديد إرهابى بنسفها ، لما أحاطت نفسها بكل هذا القدر من الحراسة والحماية ..

لقد بدت فى ذلك الصباح أشبه بقلعة حصينة ، أحاط بها رجال الأمن والحراسة فى كل جانب ، وانتشرت على سطحها فرق المراقبة ومكافحة الإرهاب ، وتم تفتيش كل من يدخلها ، على نحو جعل معظم الناس تحجم عن مجرَّد الاقتراب منها ، مما أثار غضب السفير الإسرائيلى ، الذى استدعى إليه مسئول الأمن ، وقال له بمنتهى الصرامة :

ـ أية حماقة تلك ، التى ترتكبها هذا الصباح ؟!.. إننا ندعو الناس ليل نهار لزيارة (إسرائيل) ، محاولين إزالة الخوف من قلوبهم ، تجاه ما يفعله المخربون العرب هناك ، ثم تأتى أنت لترهب كل من يقترب من السفارة !.. سأتقدَّم بشكوى رسمية فى هذا الشأن ، لرئيس الوزراء شخصيًا .

أجابه (جونسون) فى برود :

ـ اشك لكل من ترغب يا سيدى السفير .. إنها إجراءات أمن ، وأنت خير من يعرف .. عندما يتعلَّق الأمر بأمن (إسرائيل) ، فالأمن وحده صاحب الكلمة ، دون سواه .

قال السفير فى غضب :

ـ حتى لو أساء هذا إلى (إسرائيل) ؟!

زمجر (جونسون) ، مجيبًا :

ـ حتى لو فنى نصف سكانها ، من أجل هذا .

امتقع وجه السفير ، وصمت بضع لحظات ، عاجزًا عن الكلام ، قبل أن يغمغم فى عصبية شديدة :

ـ سأتقدَّم بالشكوى على أية حال .

قال (جونسون) :

ـ افعل أرجوك .

ثم التفت إلى أحد رجاله ، قائلاً ، وقد تجاهل السفير تمامًا :

ـ ألم يأت بعد ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليس بعد .

ثم تردَّد لحظةً ، قبل أن يستطرد فى حذر :

ـ ولست أظنه يأتى .

انعقد حاجبا (جونسون) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ولماذا ؟!

أجابه فى سرعة ، قبل أن يمنعه توتره :

ـ لأنه يعلم أننا نبحث عنه ، وفى موقف كهذا ، ومع ما نحيط به السفارة من إجراءات أمن ، لست أظنه يقترب حتى منها .

قال السفير فى حنق :

ـ هذا بالضبط ما أردت قوله .

التفت إليه (جونسون) فى عصبية ، ولكنه تابع فى حدة :

ـ المفترض أمنيًا ، لأى شخص عاقل ، أن تتم كل هذه الإجراءات فى سرية بالغة ، بحيث لا يشعر المستهدف بأنه كذلك .

كان هذا صحيحًا تمامًا ، من الناحية المنطقية ..

والأمنية أيضًا ..

وهذا يعنى أن (جونسون) قد ارتكب خطأً جسيمًا ..

للغاية ..

والأسوأ أنه لم يعد باستطاعته التراجع ..

مهما قال ..

ومهما فعل ..

وبكل توتر الدنيا ، راح يدير عينيه فيما حوله ، وفيما أمر به ..

لقد خالف المبدأ الأمنى الرئيسى ، وتصرَّف بعصبية شديدة ، أفقدته الحكمة ، والقدرة على استبصار الأمور بروية وذكاء ..

و(جراهام) لن يغفر له هذا أبدًا ..

وكعادته ، سيسعى إلى تدميره ..

بمنتهى العنف ..

وعلى الرغم منه ، ارتجف جسده كله ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

ولا ريب فى أن هذا بدا واضحًا على ملامحه ، حتى إن السفير قد ابتسم فى شماتة ، قائلاً :

ـ أدركت الخطأ .. أليس كذلك ؟!

تطلَّع إليه (جونسون) فى عصبية ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

لم ينطق ..

ولم يكن باستطاعته أن يفعل ..

لقد أخطأ ..

وليس باستطاعته أن ينكر هذا ..

ليس باستطاعته أبدًا ..

« أدون (جونسون) .. »

هتف بها رجل الأمن ، فى انفعال شديد ، فالتفت إليه (جونسون) فى لهفة ، ليضيف ، وهو يشير أمامه :

ـ ها هو ذا .

واتسعت عينا (جونسون) عن آخرهما ..

فعلى عكس كل التوقعات ، كان الشاب يدخل إلى السفارة الإسرائيلية ، بمنتهى الهدوء والثقة ..

وكان هذا بالفعل مفاجأة ..

أقوى وأكبر مفاجأة .

* * *

8ـ هذا الشبل ..

ارتفع حاجبا (قدرى) ، بمنتهى الدهشة والاستنكار ، وهو يحدّق فى وجه (حسن) ، غير مصدّق لما سمعه منه ، واستغرق تحديقه فيه نصف دقيقة كاملة ، قبل أن يهز رأسه فى عنف ، قائلاً :

ـ ذهب إلى السفارة الإسرائيلية ؟!.. بعد كل ما رويته لى ؟!

قلب (حسن) كفيه ، وهو يقول بصوت مختنق :

ـ هذا آخر ما توقعناه جميعًا .. الكل يطارده ويبحث عنه ، فى قلب (باريس) ، وهو يعلم أن الإسرائيليين يسعون لاغتياله ، بعد أن سعوا لهذا أمس بالفعل ، وهذا يعنى أنهم قد كشفوا أمره ، على نحو أو آخر .

غمغم (قدرى) فى توتر :

ـ جواز السفر متقن للغاية .

هزّ (حسن) رأسه نفيًا ، وقال فى حسم :

ـ المشكلة لا تكمن فى جواز السفر ، ولكن فى المواجهة السابقة على الأرجح .

تراجع (قدرى) متمتمًا :

ـ هل تعتقد هذا؟

أومأ برأسه إيجابًا ، فغرق (قدرى) فى أفكاره بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حيرة شديدة :

ـ لماذا يعود إليهم إذن ؟!

زفر (حسن) فى توتر ، مغمغمًا :

ـ لديه خطة ما حتمًا .

هتف (قدرى) فى عصبية :

ـ أية خطة ؟!

قلب (حسن) كفيه مرة أخرى ، وهو يمط شفتيه فى يأس ، قبل أن يقول :

ـ عندما بلغونى الأمر ، منذ دقائق قليلة ، لم أصدقه فى البداية ، ثم سرعان ما أدركت أن (أدهم) يمتاز بتركيبة عقلية غير تقليدية ، وبجرأة وثقة بالنفس بلا حدود .

تمتم (قدرى) فى عصبية :

ـ وبِمَ يمكن أن يفيده هذا ؟!

لوَّح (حسن) بيده ، قائلاً :

ـ هذا يساعده على القيام بخطوات ، تخالف كل توقعات الجميع ، وربما تبدو حمقاء فى البداية ، ولكنها حتمًا تستند إلى منطق مـا ، أو إلى خطة معقَّدة ، نادرًا ما يضعها بنجاح ، عقل شخص واحد .

وصمت لحظة ، شرد خلالها بصره ، وكأنما يستعيد ذكرى قديمة ، قبل أن يتابع :

ـ ولقد دربَّه على هذا لاعب شطرنج شديد البراعة .

ارتفع حاجبا (قدرى) فى دهشة ، وهو يغمغم :

ـ شطرنج .

أومأ (حسن) برأسه ، وقال ، على الرغم من المرارة والحزن ، المطلَّين من عينيه :

ـ نعم .. يجيد الشطرنج إلى حد مذهل ، حتى إنه يلاعب نفسه لساعات وساعات ، ويدور دور اللاعبين فى الوقت ذاته ، وخاصة بعد أن أقعدته إصابة عنيفة ، فى ميدان القتال .

غمغم (قدرى) :

ـ فى الحرب ؟!

صمت (حسن) لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ فى الحرب التى لا تنتهى أبدًا .

وصمت لحظة أخرى ، ثم استطرد فى خفوت :

ـ حربنا .

أدرك (قدرى) ما يعنيه على الفور ، وصمت تمامًا ، دون أى تعليق ، وشاركه (حسن) صمته المهيب لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ والآن .. أما زلت تصر على كتمان السر ، وترك (أدهم) يواجه مصيره .

وصمت (قدرى) ..

أو أنه واصل صمته لحظات أخرى ..

لحظات طوال ..

للغاية ..

كان يوازن الأمر فى رأسه ..

أو يحاول هذا ..

لقد وعد (أدهم) بكتمان السر ..

مهما حدث ..

ومهما تطوَّرت الأمور ..

ولكنه يشعر أن الأمور قد تطوَّرت بسرعة ..

وأن الموقف صار شديد الخطورة ..

إلى أقصى حد ..

وهذا يضعه فى موقف شديد الصعوبة ..

وأمام اختيار بالغ الخطورة ..

هل يمنحهم ما يريدون ..

أم يمنحه ثقته ، فى أهلك المواقف ..

ماذا ينبغى أن يفعل ؟!..

ماذا ؟!..

ماذا ؟!..

* * *

مع غرابة الموقف ، راح جسد (جونسون) يرتجف على نحو غريب ، على الرغم من تماسكه الخارجى ، وهو يستقبل (أدهم) عند مدخل السفارة ، قائلاً ، فى صوت أراده صارمًا قاسيًا ، ولكنه خرج ، على الرغم منه ، مرتجفًا منفعلاً :

ـ أوراقك .

قدَّم له (أدهم) ذلك الإيصال فى هدوء مستفز ، وهو يقول بالفرنسية :

ـ أتيت لآخذ جواز سفرى ، طبقًا لهذا الإيصال .

قال (جونسون) ، فى مزيج من الدهشة والغضب :-

ـ بهذه البساطة ؟!

هزَّ (أدهم) كتفيه فى هدوء ، مجيبًا :

ـ ولِمَ لا ؟!.. معى إيصال رسمى ، معتمد منكم .

ثم مال نحوه ، وأضاف على نحو مستفز :

ـ أليس كذلك ؟!

نطقها ، وهو يتطلَّع إلى عينى (جونسون) مباشرة ، مما استفز مشاعر هذا الأخير بشدة ، فتطلَّع إليه لحظات فى تحد ، ثم أشار إلى رجاله ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أسأت تقديرنا كثيرًا أيها المصرى .

بدأ رجاله تحركهم نحو (أدهم) بالفعل ، وأدهشهم أن هذا الأخير ، على الرغم من صغر سنه ، بدا شديد الهدوء ، وكأنه لا يخشاهم ، أو يبالى حتى بهم ، مما استثار مشاعرهم أكثر ، وملأها بالعدوانية تجاهه ، و ...

وفجأة ، ظهرت تلك العربات ..

عربات كبيرة عديدة ، كلها تحمل شعارات قنوات تليفزيونية ، ووكالات أبناء مختلفة ، فرنسية وعالمية ..

وفى لحظات ، وقبل حتى أن يستوعب (جونسون) ورجاله الموقف ، سطعت مصابيح التصوير ، وأضواء الكاميرات التليفزيونية ، واندفع عشرات المراسلين ، يمطرون موظفى السفارة وعمالها ، وحتى روادها بالأسئلة ، مما جعل (جونسون) يهتف محنقًا :

ـ ماذا يحدث هنا ؟!

ابتسم (أدهم) ، وهزَّ كتفيه ، مجيبًا :

ـ يبدو أن أحدهم قضى ليلته ليجرى اتصالاته مع وسائل الإعلام المختلفة هنا ، ويخبرهم أن السفارة الإسرائيلية تتعامل بعنف وشراسة ، مع كل من يتقدَّم بطلب تأشيرة دخول إلى (إسرائيل) ، ولكن لديها أسبابها ، التى ستعلنها هذا الصباح ، وهم هنا ، حتى لا يفوتهم السبق الإعلامى .

تضاعف غضب (جونسون) ألف مرة ، وهو يتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، فاتسعت ابتسامة (أدهم) الساخرة ، وهو يقول فى هدوء :

ـ والآن ، هل يمكننى استعادة جواز سفرى ؟!

نقل (جونسون) بصره ، بين (أدهم) ورجال الإعلام لحظات ، ثم أفسح له الطريق ، وهو يقول فى سخط :

ـ بالتأكيد .

وفى هدوء مستفز ، اتجه (أدهم) نحو مبنى السفارة(*) ، وعبره بابتسامته الهادئة ، فتبعه مدير الأمن ببصره فى صمت ، ثم أشار إلى أحد رجاله ، مغمغمًا :

ـ الخطة (ب) .

تحرّك الرجل فى سرعة ؛ لتنفيذ الخطة (ب) ، فى حين تصدّى (جونسون) لرجال الإعلام المنتشرين فى المكان ، قائلاً فى صرامة ، لم تخل من التوتر :

ـ مهلاً أيها السادة ، أنتم الآن على أرض إسرائيلية(*) ، وتخالفون كل النظم القانونية والدبلوماسية .

راح المراسلون والإعلاميون يجادلونه فى الأمر ، ويناقشون قوانين الحريات ، والنظم الدبلوماسية ، فى حين انشغل هو عنهم بمتابعة ما يفعله رجاله ، الذين انتشروا على نحو مدروس ، بحيث يمنعون الكل فى هدوء ، من دخول السفارة ، حتى ينفرد (أدهم) وحده بالمكان ..

(*) تنص القواعد والقوانين ، فى كل دول العالم ، على اعتبار أن أرض أية سفارة ، والمتمثلة فى حدودها السكنية ، تعد أرضًا تابعة لدولة السفارة ، وليس الدولة المضيفة ، والاعتداء عليها يُعدُّ اعتداءً على الدولة صاحبة السفارة مباشرة .

ثم فجأة ، انطلق إنذار الحريق ، وصاح (جونسون) :

ـ إنه حريق داخل السفارة .. ابتعدوا بسرعة .

ومع حالة الفوضى ، التى سادت المكان ، فور انطلاق إنذار الحريق ، اندفع خمسة ، من رجال أمن السفارة الأشداء ، نحو (أدهم) الشاب ، وتعاونوا على تكبيل حركته ، وأحدهم يغرس مسدسه فى مؤخرة عنقه ، ثم حملوه فى عنف وسرعة ، إلى حجرة جانبية ، أغلقوا رتاجها بمنتهى الإحكام خلفهم ..

وهكذا أصبح (أدهم) الشاب فى قبضتهم ..

فى قبضة العدو ...

الإسرائيلى .

* * *

« لا .. »

نطق قدرى العبارة ، بمنتهى القوة والحزم ، فاحتقن وجه (حسن) فى شدة ، وهو يهتف به فى عصبية ، لا تليق برجل مخابرات :

ـ ماذا تعنى بهذه الـ (لا) ؟!

أجابه (قدرى) ، فى حزم أكثر :

ـ أعنى لا ، بكل بساطتها ووضوحها .. لا .. لا .. لا .. لن أحنث بقسمى لصديقى (أدهم) قط ، مهما فعلتم ، ومهما كان الثمن .

احتقن وجه (حسن) ، وهو يهتف به :

ـ حتى ولو كانت حياته هى الثمن .

صمت (قدرى) لحظة ، احتقن خلالها وجهه المكتظ ، قبل أن يجيب :

ـ ما من مخلوق ، فى الدنيا كلها ، يمكن أن يؤثِّر بقدر أنملة ، فى حياة أو موت مخلوق آخر .. الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى وحده ، ولقد حدَّد موعد موتنا ، قبل حتى أن نولد .

قال (حسن) فى حدة :

ـ هذه الفلسفة لن تنقذ حياته ، لو قرَّر الإسرائيليون التخلُّص منه .

قال (قدرى) ، فى حدة مماثلة :

ـ وماذا عنكم ؟!

بُهِت (حسن) للسؤال ، فتساءل فى عصبية :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه (قدرى) بنفس الحيرة :

ـ أعنيكم أنتم يا رجال المخابرات .. أنتم تخاطرون بأرواحكم طوال الوقت ، ولا تطرحون على أنفسكم قط هذا السؤال .. لا تفكرون لحظة فى حياتكم أو موتكم ، فلماذا تحرمون (أدهم) من هذا ؟!

صاح به (حسن) :

ـ نحن نقاتل ونضحى ، فى سبيل ما نؤمن به .

هتف (قدرى) :

ـ وهذا ما يفعله هو .

مرة أخرى ، بُهِت (حسن) للقول ، وحدَّق فى وجه (قدرى) ، الذى انخفض صوته فى تأثُّر ، وهو يستطرد :

ـ ربما لا تقتنعون بهدفه ، ولا توافقون عليه ، ولكنه يقاتل فى سبيل ما يؤمن به ، وليس لديه أدنى خوف ، أو تردُّد ، فى التضحية من أجله بحياته نفسها ، لو اقتضى الأمر .

صمت (حسن) لحظات ، قبل أن يميل نحوه ، قائلاً :

ـ أأنت مستعد لاحتمال وزر ما يصيبه ، حتى آخر يوم فى حياتك ؟!

تضاعف تأثُّر (قدرى) ، وهو يقول :

ـ قد يدمرنى هذا بالفعل .

ثم اعتدل ، واكتسب صوته حزمًا شديدًا ، وهو يضيف :

ـ ولكن هذه هى الصداقة .. أن تضحى من أجل صديقك ، وأن تثق به ، وتعاونه فيما يسعى إليه ، حتى لو اختلفت معه .. المهم أن تؤمن بـه ، وبنبل وعدالـة هدفـه ، وليفعل اللـه (عزَّ وجلَّ) بعدها ما يشاء .

كم راق هذا المبدأ لرجل المخابرات ..

كم فهمه ..

واستوعبه ..

وقدَّره ..

واحترمه ..

وكم ضاق به ، فى هذا الموقف بالذات ..

الموقف الذى يتعلَّق بابن صديق وزميل عمره الراحل ..

(أدهم) .. (أدهم صبرى) ..

(أدهم) ، الذى دخل بقدميه السفارة الإسرائيلية فى (باريس) .. إلى وكر الذئاب ..

والله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم ، ماذا يفعلون به الآن ؟!..

ماذا ؟!..

* * *

التف رجال الأمن الخمسة الأشداء حول (أدهم) ، وكبَّلوا حركته فى شدة ، ألصق ثلاثة منهم فوهات مسدساتهم بجسده ، وأحدهم يقول ، فى صرامة شرسة ، وباللغة العبرية القديمة :

ـ همسة واحدة وأفرغ رصاصات مسدسى فى رأسك .

أدهشه وأحنقه ذلك الهدوء الشديد ، الذى بدا فى ملامح (أدهم) وصوته ، وهو يقول :

ـ حقًّا ؟!.. لماذا لا يقنعنى هذا ؟!

ثم ضرب قدمه فى الأرض بقوة ، مستطردًا فى حزم :

ـ ألأنكم لا تستطيعون قتلى ، بعد أن سجَّلت كل وسائل الإعلام المحلية والعالمية ، دخولى إلى سفارتكم ؟!

قبل أن يبحث الرجال الخمسة عما يجيبون به ، انبعث فجأة دخان أبيض ، من حذاء (أدهم) ، فهتف أحدهم :

ـ ماذا يحدث ؟!

كتم (أدهم) أنفاسه فى قوة ، وترك العمالقة الخمسة من حوله يتحركون فى اضطراب وارتباك تأمينى ..

فوحده كان يعلم ماذا يحدث ..

دروس الكيمياء ، التى لقنه إياها والده ، تحت إشراف خبير كيميائى ، أتت ثمارها الآن ..

مساحيق وسوائل التنظيف التى ابتاعها ، وظل يخلطها ببعضها البعض ، بنسب دقيقة ، طوال ليلة أمس ، تحولت على يديه إلى قنبلة ..

قنبلة غاز مثير للأعصاب ، ثبتها فى أسفل حذائه ، بين الكعب والباطن ، داخل غلاف مطاطى منتفخ ..

وبضربة فنية ، فجَّره ..

واختلط السائل بالهواء ..

وانطلق الغاز ..

ولأنه تدرَّب جيدًا على مثل هذه الأمور ، منذ نعومة أظفاره ، فقد كان يعلم أن الوسيلة الوحيدة ، لتفادى تأثير الغاز ، هى أن يكتم أنفاسه ..

ولقد فعلها ..

ومن حوله ، راح الرجال الخمسة يسعلون ..

ويسعلون ..

ويسعلون ..

وهنا ، تحرَّك هو ...

كان أقلهم حجمًا يبلغ ضعف حجمه على الأقل ، وعلى الرغم من هذا فقد تحرَّك فى نشاط مدهش ، وهو ما زال يكتم أنفاسه ، وتملَّص من بين أيديهم المرتجفة ، وراح يوزِّع عليهم لكماته وركلاته ، ذات اليمين وذات اليسار ، لتتحطم الأنوف ، وتتساقط الأسنان ، وتتفجَّر الدماء ..

وبكل الألم والغضب ، صرخ قائد الرجال الخمسة :

ـ تماسكوا ، ولا تسمحوا له بالفرار ، حتى لو ....

أخرسته لكمة كالقنبلة ، من قبضة (أدهم) الشاب ، الذى وثب يعتلى بقدمه اليسرى ظهر أحد الرجال الآخرين ، وركل الباب

المغلق بقدمه اليمنى ، فى قوة كبيرة ، حطَّمت رتاج الباب ، وفتحته على مصراعيه ، ليقفز هو خارجه ، إلى ساحة السفارة ، أمام عدسات أجهزة الإعلام ، التى لم ينجح (جونسون) فى صرفها بعد ..

وللحظة ، ساد المكان كله صمت تام ..

صمت صنعته الدهشة ..

وصنعه الغضب والحنق ..

غضب (جونسون) ..

وحنقه ..

ولكن (أدهم) قطع ذلك الصمت ، وهو يبتسم لعدسات الإعلام ، قائلاً :

ـ معاملة جيدة .. أليس كذلك ؟!

لم ينطق أحدهم بحرف واحد ، وإن احتقن وجه (جونسون) ، وارتبك موظفو السفارة ، فى حين اتجه (أدهم) الشاب فى هدوء شديد ، نحو موظفة السفارة ، وقدَّم لها الإيصال ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ جواز سفرى من فضلك .

اتسعت عينا الموظفة ، والتفتت إلى (جونسون) ، الذى عضَّ

شفتيه فى غيظ ، وأومأ لها برأسه إيماءة خفية ، وتركَّزت كل عدسات وكالات الأنباء عليها ، فالتقطت الإيصال بأصابع مرتجفة ، وناولت (أدهم) جواز سفره ، وهى تغمغم :

ـ معذرة .. الأمن اعترض على منحك تأشيرة دخول إلى (إسرائيل) .

قال فى هدوء ، وهو يستعيد جواز السفر :

ـ لا بأس ... كنت أتوقَّع هذا .

منحها ابتسامة أخرى ، ثم رفع جواز سفره ، لتراه كل وكالات الإعلام ، وهو يغادر السفارة ، قائلاً بالفرنسية :

ـ رفضوا منحى التأشيرة .

وأطلق ضحكة ساخرة ، مستطردًا :

ـ ويدعوننا لزيارة (إسرائيل) ... يا للمهزلة !

اندفع مندوبو وكالات الأنباء يلتفون حوله ، وحول (جونسون) ، ويطرحون عشرات الأسئلة فى لهفة ، وبقدر ما بدا (أدهم) هادئًا مبتسمًا ، بدا (جونسون) عصبيًا متوترًا ، وكاد يشتبك مع اثنين أو ثلاثة من الصحفيين ورجال الإعلام ، قبل أن يشعر بيد توضع على كتفه ، ويسمع من خلفه صوتًا حازمًا يقول بالعبرية :

ـ اهدأ يا رجل .. إنها مجرَّد جولة .

التفت (جونسون) بحركة سريعة إلى مصدر الصوت ، ووقع بصره على (دافيد جراهام) ، فهتف فى لهفة متوترة :

ـ أدون (داف ....)

قاطعه (جراهام) فى صرامة ، وكأنه ينبهه إلى تجاوزه :

ـ لا قيمة للأسماء فى مثل هذا الموقف يا رجل .. دعنى أرى الهدف أولاً ، وحاول أن تبتسم ... العالم كله يشاهدك الآن .

كلماته هذه لم تهدئ (جونسون) وإنما ضاعفت من توتره ، فى حين تركه (جراهام) ، واتجه نحو حشد الصحفيين ، ليلقى نظرته الأولى المباشرة على (أدهم) ، إيذاناً ببدء جولة جديدة من الصراع ..

جولة وحشية ..

إلى أقصى حد .

* * *

9ـ مخالب الوحش ..

كادت أصابع (حسن) تعتصر سمَّاعة الهاتف ، وهو يقول لمحدِّثه ، فى توتر شديد :

ـ (جراهام) ..(دافيد جراهام) هناك!

أجابه الملحق العسكرى ، لسفارة (مصر) فى (باريس) ، عبر الهاتف :

ـ نعم .. الإسرائيليون دخلوا اللعبة بكل ثقلهم ، و(دافيد جراهام) هو ثعلبهم رقم واحد ، وذئبهم المفترس ، وظهوره على الساحة ، يعنى أنهم قد نقلوا الصراع إلى مرحلة جديدة .

تمتم (حسن) فى عصبية :

ـ وأنهم قد كشفوا أمر الفتى ، وقرَّروا تصفيته .

وسرت ارتجافة خفيفة عبر صوته ، وهو يستطرد :

ـ أو الحصول عليه .

صمت الملحق العسكرى لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ أعتقد أنه من الضرورى إبلاغ الجهاز ، فى هذه المرحلة .

صاح به (حسن) فى حدة :

ـ كلا .

ثم حاول تمالك أعصابه ، وهو يضيف :

ـ لقد أخبرتك منذ البداية ، أنها عملية شخصية .

أجابه الملحق العسكرى فى حزم :

ـ عندما يدخل الإسرائيليون اللعبة ، لا تعود هناك عمليات شخصية ، وبالذات فى ظروف الاستعداد للحرب .

زفر (حسن) فى عصبية ، وهو يقول :

ـ التدخُل الرسمى سيفسد كل شىء .

قال الملحق العسكرى ، فى حزم أكثر :

ـ هذا ليس سببًا .

صمت (حسن) تمامًا ، وهو لا يدرى ماذا يقول ....

إنه يعلم أن الملحق العسكرى على حق ..

على حق تمامًا ..

القواعد تحتم جعل الأمر رسميًا ، ما دام الإسرائيليون قد علموا به ، ودخلوا اللعبة ..

وبكل قوتهم ..

وصول (دافيد جراهام) إلى الساحة ، يعنى أن الصراع سيتخذ حتمًا سمة جديدة ...

سمة وحشية ..

إلى أقصى حد ..

وهذا أمر بالغ الخطورة ..

للغـاية ..

ووحده لن يستطيع مواجهة (الموساد) كله ..

وكذلك (أدهم) ..

صحيح أنه قد تلقَّى تدريبات ، لم يتلقَّاها شاب فى عمره قط ، عبر تجربة فريدة ، لا مثيل لها ، إلا أن هذا لا يعنى أنه قادر على مواجهة جهاز مخابرات بأكمله ..

ربما فريق أو فريقين منه ..

ولكن ليس الجميع ..

الكثرة حتمًا ستغلب الشجاعة ..

والبسالة ..

والجرأة ..

وحتى المبدأ ..

وصحيح أنه يخشى أن يفسد هذا أمل (أدهم) ، فى الالتحاق بالمخابرات ، ولكن ما باليد حيلة .. حياته أصبحت أمام مستقبله ..

وعليه هو أن يختار ..

حياة (أدهم) ..

أو مستقبله ..

وبحسبة سريعة ، حسم أمره ، وقال للملحق العسكرى فى حزم :

ـ أنت على حق .. لابد من إبلاغ الجهاز .

وأنهى المحادثة مع الملحق العسكرى ، ثم التقط سمّاعة الهاتف مرة أخرى ؛ ليطلب رئيسه المباشر ..

فقد اتخذ قراره ، وقلبه يبكى ..

دمًا ..

* * *

عبر شوارع (لندن) القديمة ، راح الناشط الفلسطينى (فاضل) يتحرك فى نشاط ، وهو يمسك يد ولده الصغير ، الذى بدا فرحًا منشرحًا ، وهو يسير إلى جوار والده ، الذى قلّما يراه أو يقضى بعض الوقت معه ..

فالرجل أحد الزعماء الكبار لمنظمة (فتح) ، التى نشأت من قلب الشعب الفلسطينى ، بعد معاناته الطويلة مع الاحتلال ؛ للتصدى للعدوان ، والسعى لاسترداد الأرض السليبة ، التى طردهم منها من لا يستحقها ..

ولأنه أحد الزعامات السياسية ، فعمله كله يقتصر على شرح القضية الفلسطينية للمجتمع الدولى ، والسعى لجلب المساعدات المادية والمعنوية ، لصالح المنظمة ، والشعب الفلسطينى كله ..

باختصار ، كان أشبه بسفير لوطنه ، فى بلاد العالم المختلفة ..

ولأن وطنه محتل ، والمستعمر لن يسمح له بممارسة نشاطه ، فقد اتخذ من (لندن) مستقرًا ، ونقطة انطلاق ، إلى هدفه ومستقبل بلاده ..

وبحكم طبيعة عمله ، كان رجلاً دبلوماسيًا هادئًا ، ونموذجًا لما ينبغى أن يكون عليه المواطن المغترب ، فقد تزوَّج من فلسطينية ، واستقر فى منطقة (بيكاديللى) ، وأقام علاقات طيبة مع جيرانه ، وصداقات مثالية مع زملاء العمل ، وأنجب طفلاً واحدًا ، وراح يمارس عمله ، متصورًا أن مناخ الحرية السائد هناك ، سيتيح له هذا ..

ولكن الإسرائيليون كان لهم رأى آخر ..

رأى ترجموه فى صورة قرار ..

قرار اغتيال ..

أوّل قرار للإدارة الجديدة فى (الموساد) ..

إدارة الاغتيالات ..

لذا فقد راح رجلان ضخما الجثة ، يتبعان (فاضل) وابنه ، عبر شوارع مدينة الضباب ، حتى توقّف عند متجر للألعاب ؛ ليبتاع لعبة لولده ، فسحب كلاهما مسدسه ، المزوّد بكاتم للصوت ، واتجها نحوه من الجانبين ، وصوّبا إليه المسدسين ، وصاح به أحدهما بالعبرية :

ـ أيها المخرّب العربى .

استدار إليه (فاضل) فى ذعر ، ورأى الفوهتين المصوّبتين إليه ، فصرخ ، وهو يثب ؛ ليحمى ابنه بجسده :

ـ لا .. ليس ولدى .

ومع صرخته ، انطلقت الرصاصات الغادرة ..

رصاصة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وكلها تلقّاها جسد (فاضل) ..

تلقّاها وهو يحمى ابنه ..

ابنه الوحيد ..

وعندما سقط مضرجًا فى دمائه ، وهو يحتضن ابنه ، الذى راح يحدّق فيه فى رعب ، غير مستوعب ما حدث ، انطلق الغادران الإسرائيليان يعدوان مبتعدين ، والمارة يسرعون نحو المكان ، وقد انخلعت قلوبهم ، مع مرأى الطفل المسكين ، الذى تفجّرت عيناه بالبكاء ، هو يهز جثة والده ويحتضنها ، محاولاً إيقاظه أو إنعاشه ..

ولكن الجريمة كانت قد اكتملت ..

الجريمة الإسرائيلية ..

الغادرة ..

* * *

« سنختطفه ، بعد أن ينصرف الإعلاميون .. »

نطقها (جونسون) فى مقت ، وهو يشير إلى (أدهم) ، فأمسك (جراهام) يده وخفضها ، قائلاً فى صرامة :

ـ اهدأ يا رجل ، ودعه ينصرف بأمان .

قال معترضًا :

ـ ولكن ..

قاطعه (جراهام) ، فى صرامة أكثر :

ـ سنتولى نحن أمره من هنا .

استوعب (جونسون) الأمر على الفور ، وغمغم فى توتر :

ـ أنتم ؟!

أجابه (جراهام) بكلمة واحدة مقتضبة صارمة :

ـ نحن .

كان (أدهم) الشاب يواصل توزيع ابتسامته وكلماته الهادئة ، على رجال الإعلام ، الذين سرعان ما أفرغوا جعبتهم معه ، وعادوا يحيطون برجال السفارة ، بحثًا عن سبق جديد ، فانسل (أدهم) مبتعداً ، و(جراهام) يتابعه ببصره فى اهتمام ، وهو يومئ برأسه ، على نحو متفق عليه ..

وعلى الفور ، تحرك ثلاثة من رجاله ، من ثلاثة اتجاهات مختلفة ، وراحوا يتبعون (أدهم) ، فى إطار تدربوا عليه طويلاً ، فى أقبية (الموساد) ..

وفى هدوء شديد ، سار (أدهم) ، وكأنما لا يشغل شىء فى الوجود باله ، أو كأنه لا ينتبه إلى مراقبيه ، الذين همس أحدهم ، عبر جهاز اتصال خفى :

ـ الهدف يتجه إلى قلب المدينة .

أجابه (جراهام) فى صرامة :

ـ أنتم تطاردون شبلاً عنيدًا ، فلا ترفعوا عيونكم عنه لحظة واحدة .

كان يرغب بشدة فى الإيقاع بالشاب ، حتى يتوصّل إلى حل اللغز ..

لغز (أدهم) ..

كان يريد أن يعلم ، لماذا يطارده المصريون ؟!..

ولماذا يهرب هو منهم ؟!..

لماذا ؟!..

لماذا ؟!..

ولأنه نقل رغبته الشديدة هذه إلى رجاله الثلاثة ، فقد تعقّبوا (أدهم) بكل حماستهم ، وهو ينتقل من مكان إلى مكان ، حتى

دلف إلى إحدى الأسواق المزدحمة ، حول نهر (السين) ، وامتزج بالمارة ، وغاص وسط الزحام ، فأسرعوا يتخذون تشكيلاً خاصًا ، بمثل هذه الأمور ، وحاصروا المجموعة كلها ، وبدءوا خطة تضييق الحصار ..

وضاق حصارهم أكثر .. وأكثر ..

وفجأة ، أدركوا ما غاب عنهم وسط الزحام ..

لقد اختفى (أدهم) الشاب من المكان ..

تمامًا .

* * *

انعقد حاجبا المفتش (آلان) فى شدة ، وهو يتابع ذلك اللقاء ، الذى بثته وسائل الإعلام الفرنسية ، مع (أدهم) الشاب ، وقال فى صرامة ، وهو يشير إلى شاشة التليفزيون :

ـ إنه هو .

وضغط زرًا على مكتبه ، فأسرع إليه مساعده (بيير) ، متسائلاً :

ـ أوامرك أيها الرئيس .

عاد (آلان) يشير إلى الشاشة ، قائلاً :

ـ هذا هو الشاب ، الذى نبحث عنه .

التفت (بيير) إلى الشاشة ، متسائلاً فى حذر :

ـ حقًا ؟!

أجابه (آلان) ، وهو يلتقط سترته :

ـ الأوصاف تنطبق عليه تمامًا ، وما يفعله مع الإسرائيليين يؤكد أنه هو .

قال (بيير) مترددًا :

ـ كلنا نتابع ما يحدث ، ولكن ...

قاطعه (آلان) بمنتهى الصرامة :

ـ لا يوجد لكن .. إنه هو ... أرسل فريقًا من رجالنا إلى هناك فورًا .

سأله (بيير) :

ـ ليفعلوا ماذا ؟!

قال (آلان) فى حدة :

ـ ليلقوا القبض عليه بالطبع .

قال (بيير) فى سرعة :

ـ وماذا لو كنا مخطئين ؟!

التفت إليه (آلان) بحركة حادة غاضبة ، و ...

وتوقَّف ..

كان لابد وأن يدير الأمر فى رأسه فعليًا ..

نعم .. ماذا لو كانوا مخطئين ؟!

ماذا ؟!..

فى هذه الحالة ، سيحق للشاب أن يشكوهم ..

ويقاضيهم ..

ويدمِّر مستقبلهم كله ..

لابد إذن من دليل ..

دليل حاسم ..

قاطع ..

ومادى ..

« سنكتفى بمراقبته الآن إذن .. »

نطقها فى عصبية شديدة ، وهو يرتدى سترته ، ثم اندفع خارجاً ، فهزَّ (بيير) رأسه ، واتبعه فى سرعة ..

وعندما استقلا سيارتهما ، وخلفهما فريق من الرجال ، كان مراقبو (الموساد) يقلبون منطقة نهر (السين) بحثًا عن (أدهم) ، الذى اختفى تمامًا ..

وفى توتر بالغ ، قال أحدهم لرئيسه (جراهام) ، عبر جهاز الاتصال :

ـ أدون (جراهام) .. لقد اختفى .

كان يتوقَّع ثورة عارمة من (جراهام) ، إلا أنه فوجئ به يقول فى هدوء :

ـ لا بأس .. كنت أتوقَّع هذا .

قال الرجل فى دهشة :

ـ كنت تتوقَّع اختفاءه ؟!

أجابه فى صرامة شديدة :

ـ بل كنت أتوقَّع أننى أعمل مع أغبياء .

صدمه الجواب ، فلاذ بالصمت التام ، فى حين قال (جراهام) مستطردًا :

ـ ولكننى أعرف ماذا ينبغى أن نفعل ، فى المرحلة التالية .

سأله الرجل فى لهفة :

ـ ماذا ؟!

أجابه (جراهام) فى حزم :

ـ سيحاول الحصول على هوية جديدة .

غمغم الرجل مبهورًا :

ـ حقًّا ؟!

زمجر (جراهام) ، قائلاً :

ـ إنه يحمل جواز سفر باسم (موريس ديلون) ، ويعلم أنه لدينا اسمه ورقم الجواز ، وأن هذا سيمنعه من الإقامة بهما فى أى مكان ، يمكننا البحث عنه فيه ، لذا فهذا يحتم عليه أن يحصل على هوية جديدة ، أو جواز سفر جديد باسم آخر ، وربما بجنسية مختلفة أيضًا .

تساءل الرجل فى حذر :

ـ وكيف يساعدنا هذا على العثور عليه ؟!

قال (جراهام) فى اهتمام :

ـ إننا نعرف كل أوكار الجريمة فى (باريس) ، ولنا رجالنا فى كل وكر منها .. سنبلغهم جميعًا بمواصفات الشاب ، وبأنه قد يلجأ إلى أحد كبار المزيفين ؛ للحصول على هوية جديدة ، وعليهم إبلاغنا ، فور ظهوره .

تساءل الرجل ، فى حذر أكثر :

ـ وهل يمكن أن ..

قاطعه (جراهام) مرة أخرى فى صرامة :

ـ سنبحث فى الوقت ذاته عن (موريس ديلون) الشاب ؛ حتى لا يخدعنا بالاحتفاظ باسمه وهويته ، فما فهمته من أسلوبه ، هو أنه يلجأ دومًا لما لا يتوقَّعه منه أحد .

قال الرجل فى اهتمام :

ـ مثل عودته إلى السفارة ؟!

انعقد حاجبا (جراهام) ، وهو يقول محدثًا نفسه :

ـ هذا ما أتساءل عنه حتى هذه اللحظة .. لماذا عاد ، لو أنه لا يحتاج إلى جواز سفره ؟!.. لماذا ؟!

غمغم الرجل :

ـ ربما لأنه يحتاج إلى جواز سفره ، ولن يبدل هويّته .

قال (جراهام) مفكّرًا :

ـ أو أنه يريدنا أن نعتقد هذا .

تساءل الرجل فى حيرة :

ـ ولكن لماذا ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (جراهام) ، وهو يقول :

ـ نعم .. هذا هو السؤال .. لماذا ؟!.. لماذا ؟!

ثم نفض السؤال عن ذهنه فى حدة ، وهو يستطرد فى صرامة :

ـ ولكننا لن نضيع الوقت فى التساؤل .. ابدءوا عملكم فورًا .. أريد هذا الشاب بأى ثمن .

سأله الرجل فى سرعة :

ـ حيًّا .

صمت (جراهام) لحظة ، ثم أجاب بكل الصرامة :

ـ لو أمكن .

سأله الرجل ، فى شغف عجيب :

ـ فإن لم يمكن .

أجابه فى سرعة وصرامة :

ـ فميتًا .

وكان جوابه حاسمًا ..

للغاية ..

* * *

« لا أثر له فى أى مكان .. »

نطق الملحق العسكرى ، لسفارة (مصر) فى (باريس) العبارة ، فى توتر شديد ، وهو يواجه (حسن) ، الذى وصل إلى مطار (أورلى) ، على متن أوّل طائرة قادمة من (القاهرة) ، فقال (حسن) فى صرامة ، وهو يضع حقيبته الصغيرة الوحيدة ، فى صندوق سيارة السفارة ، التى تقف أمام المطار :

ـ جواب لا يناسب رجل أمن مخضرم ..

غمغم الملحق العسكرى فى ضيق :

ـ لا تنسَ أن الشاب مدرَّب جيدًا على التخفى .

كان (حسن) يعلم جيدًا أن الملحق العسكرى على حق ..

لقد تلقَّى (أدهم) تدريبات كثيرة قوية ، فى هذا المضمار ..

تدرَّب على يد والده الراحل ، الذى يسعى اليوم للانتقام له ..

وتمرَّن على يد العميد .. ذلك العبقرى المقعد ، الذى أسند إليه أوَّل مهمة رسمية ، فى عالم التخابر ، دون حتى أن يعلم والده بهذا ..

ولقد أثبت دومًا تفوقًا ..

وموهبة ..

وبراعة مذهلة ..

وها هو ذا الآن يثبت موهبته وبراعته وتفوقه ..

ويختفى ..

وفى مدينة مثل (باريس) ، يمكن لعبقرى مثله أن يذوب وسط الزحام ، ولا يترك خلفه أدنى أثر يرشد إليه ..

وهذا سيجعل المهمة صعبة ..

مهمته ..

ومهمة المخابرات العامة المصرية ..

وحتى مهمة (الموساد) ..

وربما الشرطة الفرنسية أيضًا !!..

ولكنه يعنى ، فى الوقت ذاته ، أن الخطر المحيط بالشاب قد تضاعف إلى حد مخيف ..

فالكل يبحث عنه ..

الأصدقاء والأعداء ..

الكل بلا استثناء ..

وبلا رحمة ..

« لقد تحوَّل الأمر إلى مهمة رسمية .. » .

نطقها (حسن) فى صرامة ، فسأله الملحق العسكرى فى اهتمام قلق :

ـ حقًّا ؟!..

أجابه (حسن) وهو يدلف معه إلى السيارة :

ـ رجالنا هنا يبحثون عنه الآن ، بأسلوب المحترفين ، وسيبلغوننا فور عثورهم عليه .

قال الملحق العسكرى :

ـ المهم أن يصلوا إليه ، قبل الإسرائيليين .

وانعقد حاجبا (حسن) فى شدة ، دون أن ينطق حرفًا واحدًا ..

فهذا ما يقلقه حقًا ، إلى حد الموت ، فى هذه اللحظات بالذات ..

من سيربح سباق العثور على (أدهم) الشاب ؟!..

من ؟!

* * *

10 ـ سباق المـوت ..

نزع المزوِّر الفرنسى (روجيه) منظاره السميك ، وهو يتطلّع إلى الواقف أمامه فى حذر ، قبل أن يسأله :

ـ تريد جواز سفر أجنبيًا ؟!.. وبأية جنسية بالضبط ؟!

أتاه الجواب فى سرعة :

ـ إسرائيلية .

تراجع (روجيه) فى دهشة بالغة ، وهو يردِّد مستنكرًا :

ـ إسرائيلية ؟!.. ومن ذا الذى يريد جواز سفر إسرائيليًا .

أجابه الواقف أمامه فى صرامة :

ـ أظن أجرك لا يتضمَّن إلقاء الأسئلة .

انعقد حاجبا (روجيه) ، وهو يغمغم :

ـ أنت على حق .

ثم تساءل فى اهتمام :

ـ وبأى اسم تريده ؟!

أجابه بنفس السرعة :

- أى اسم ، يشير إلى يهودية صريحة .

صمت (روجيه) لحظة ، ثم سأله فى حذر :

- شرقية أم غربية .

تردَّد الواقف لحظة ، قبل أن يجيب فى حذر :

- غربية .. على الأرجح .

لم يتوقَّف (روجيه) طويلاً إزاء تردُّده ؛ ربما لأنه اعتاد أن يأتيه زبائنه متوترين ، فى معظم الأحيان ، ولكنه قال فى صرامة :

- سيكلفك هذا خمسة آلاف فرنك .. يُدفع نصفها مقدمًا .

أخرج محدثُه رزمة نقدية ، وضعها أمامه ، قائلاً :

- متى أعود لاستلامه .

أجابه (روجيه) ، وهو يلتقط رزمة النقود ، ويدسها فى جيبه فى لهفة :

- مساء الغد ، على أقصى تقدير .

قال فى حزم :

- كلا .

ارتفع حاجبا (روجيه) فى دهشة ، وهو يقول :

- ماذا تعنى ؟!

أجابه فى صرامة شديدة :

- الجواز يجب أن ينتهى قبل صباح الغد .

قال (روجيه) فى توتر :

- مستحيل !.. الوقت لن يكفى لذلك .

قال محدثه فى صرامة :

- فى هذه الحالة ، سنضطر لإلغاء الصفقة .. أعد إلىَّ النقود .

وضع (روجيه) يده على جيبه ، فى حركة غريزية سريعة ، وكأنما يحاول منع رزمة النقود من مغادرته ، وقال فى توتر :

- يمكننى تسليمه لك ، فى الوقت الذى تطلبه ، مقابل ألف فرنك زائدة .

قال محدثه بكل صرامته :

- لا .. أعد إلىَّ النقود .

هتف (روجيه) فى ذعر :

- لا .

ثم مال نحوه ، وحاول أن يبتسم ، مستطردًا :

ـ ستجده جاهزًا ، فى الخامسة صباحًا .

قال محدثه ، بنفس الصرامة :

ـ مع تأشيرة دخول إلى (باريس) ، بتاريخ سابق .

قال (روجيه) فى سرعة :

ـ بالطبع .. بالطبع .

أومأ محدِّثه برأسه ، واستدار منصرفًا ، وتبعه (روجيه) ببصره لحظات ، ثم التقط سمَّاعة هاتف داخلى بسرعة ، وقال لأحد معاونيه فى صرامة :

ـ اتبع هذا الشاب ، واعلم أين يقيم .

اندفع معاونه لتنفيذ الأمر ، فى حين أنهى (روجيه) المحادثة ، وعاد يطلب رقمًا جديدًا ، ليقول فى صوت خفيض متوتر :

ـ لقد ظهر .

لم تمض عشرون ثانية على اتصاله هذا ، حتى كان (جراهام) يقول لرجاله ، عبر جهاز الاتصال ، فى صرامة شديدة :

ـ ابدءوا الخطة .. إنه فى النقطة (ص) .

تحرك رجاله فى سرعة ، لتنفيذ خطة حصار (أدهم) واصطياده ،

فى حين تنفَّس (روجيه) الصعداء ، وهو ينهى المحادثة ، وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة ..

لقد أبلغ الأمر ، وسيحصل على المكافأة السخية ، التى وعدوه بها ، و ...

« ترى ماذا يبهجك يا (روجيه) ؟!.. »

انتفض جسد (روجيه) فى عنف ، وهو يلتفت إلى صاحب الصوت فى هلع ، هاتفًا :

ـ المفتش (آلان) .

جذبه (آلان) من ياقته ، وهو يقول فى صرامة :

ـ يبدو كأنك قد فزت بجائزة كبيرة .

قال (روجيه) فى عصبية :

ـ وما شأن الشرطة بهذا ؟!

زمجر (آلان) فى وجهه ، وهو يقول فى شراسة :

ـ شأنها أن جوائزك كلها مرتبطة بمخالفة القانون ، على نحو أو آخر .

هتف (روجيه) ، محاولاً التملُّص من قبضته :

ـ هذه لا تخالفه .

شدَّد (آلان) قبضته عليه ، فاستطرد مذعورًا :

ـ بل ربما تعاونه .

مال (آلان) نحوه ، حتى كاد يلتصق بوجهه ، وهو يقول :

ـ وكيف هذا ؟!.. بالإبلاغ عن طالب جواز سفر مزوَّر ، إلى جهة أجنبية ؟!

اتسعت عينا (روجيه) عن آخرهما ، بكل ذعر الدنيا ، وهو يهتف :

ـ كيف .. كيف ..

قاطعه (آلان) فى حدة :

ـ كيف عرفت .. أليس كذلك ؟!.. لأنه التسلسل الطبيعى ، الذى يغيب عن ذهن الحقراء من أمثالك .. شاب هارب ، يعرف أن الدنيا كلها تسعى خلفه ، وأن أمله الوحيد من النجاة هو الهروب ، ليس من (باريس) ، ولكن من (فرنسا) كلها ، فماذا يفعل فى رأيك ، وهو يعلم أن الكل أصبح يحفظ ملامحه عن ظهر قلب ، ويعرف الاسم ، الذى يتحرَّك به ؟!.. من الطبيعى إذن أن يسعى للحصول على جواز سفر باسم مستعار .. أليس كذلك ؟!

اتسعت عينا (روجيه) لحظات ، وكأنهما تعترفان بالجرم المشهود ، ثم هتف ، على نحو خرج على الرغم منه ضعيفاً متخاذلاً :

ـ ولماذا أنا ؟!

صاح فيه (آلان) :

ـ ألم يأتك ؟!

هتف (روجيه) مرتجفًا :

ـ ولكننى رفضت ..

تألَّقت عينا (آلان) ، وهو يقول :

ـ إذن فهو أنت .

حدَّق فيه (روجيه) ، فى دهشة مذعورة ، فقال (بيير) فى انبهار :

ـ لم نكن نعلم أنك هو ، ولكنك اعترفت على التو ، بعد أن استجوبنا ثلاثة مزورين قبلك .

هتف (روجيه) محنقًا :

ـ يا لى من غبى!

جذبه (آلان) مرة أخرى بمنتهى القسوة ، وهو يسأله :

ـ أجبنى .. أين هو ؟!

امتقع وجه (روجيه) ، وهو يقول فى انهيار :

ـ سأخبرك ..

وبدأ يتكلم ..

* * *

على الرغم من أن السمة الرئيسية لرجل المخـابرات ، فـى أى جهاز فى العالم ، هى التماسك وهدوء الأعصـاب ، إلا أن (حسن) ، الذى اشتهر ببرود أعصابـه الشديد خـلال مهماتـه الصعبـة ، بـدا شديد التوتر والقلق ، فى هذه العملية بالذات ، وهو يقول للملحق العسكرى ، داخل سيارة السفارة :

ـ لابد أن نعثر عليه أولاً ، وإلا أصبحت حياته فى خطر .

قال الملحق العسكرى فى اهتمام :

ـ لقد أبلغنا رجالنا فـى كل المواقع ، وسيادتك تؤكِّد أنهـا قد أصبحت عملية رسمية ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، فسأله (حسن) فى صرامة :

ـ ومـاذا ؟!

أجابه الملحق العسكرى فى تردُّد :

ـ وإن كنت أتعجَّب ، من جعل البحث عن شاب ، مهمة رسمية لجهاز مخـابرات ، يستعد لخـوض حـرب تحريـر ، مـع عـدو لا يستهان به .

قال (حسن) فى صرامة :

ـ إنه ابن (صبرى) رحمه الله .

قال الملحق العسكرى فى حذر :

ـ هذا لا يصنع فارقاً فى عالمنا .

مال (حسن) عليه ، قائلاً :

ـ لو أنه ابن (صبرى) فحسب ، لما صنع هذا فارقًا ، فى عالمنا المعقَّد المتشابك هذا ، ولكن الفتى نتاج تجربة خاصة ، من الخطأ أن تقع فى أيدى الإسرائيليين ، خاصة وأن تدريباته اشتملت على بعض أهم وسائل التدريب ، التى يتميَّز بها جهازنا ، و ....

ارتفع رنين هاتف السيارة ، فى هذه اللحظـة ، فبتر (حسن) عبارته ، والتقط الملحق العسكرى سمَّاعته فى حركة سريعة ، قائلاً :

ـ هل توصلتم إليه ؟!

انعقد حاجباه فـى شدة ، وهو يستمع إلى الجواب ، فشـعر (حسن) بقلق شديد ، وهو يسأله :

ـ ماذا هناك ؟!

أزاح الملحق العسكرى السمَّاعة عن أذنه ، وقال بكل توتره :

ـ الشرطة الفرنسية ألقت القبض على (أدهم) .

وسقط قلب (حسن) بين قدميه ..

فى عنف .

* * *

احتقن وجه رئيس الوزراء الإسرائيلى فى شدة ، وهو ينتفض غضبًا ، صارخًا فى وجه مدير (الموساد) :

ـ هل جننت ؟!.. كيف تقدم على اغتيال ناشط مسالم ، فى قلب عاصمة كبرى ، وعلى نحو سافر .

أجابه الرجل فى هدوء :

ـ فى عرفنا ، لا يوجد ما يسمى بناشط مسالم .. ربما كان كفاحه يقتصر على قلمه ولسانه فحسب ، ولكن هذا لا يجعله مسالمًا .. إنه أخطر بكثير من حاملى السلاح .

صرخ رئيس الوزراء :

ـ وفى قلب عاصمة كبرى ؟!

بدا مدير الموساد باردًا ، وهو يقول :

ـ لا يمكننا دومًا اختيار ساحة القتال .

لوَّح رئيس الوزراء بذراعيه فى حدة ، وهو يهتف ، وقد امتزج غضبه بمرارة لا حد لها :

ـ ولكن كان يمكنكم التزام الحرص على الأقل .. لقد نفذ رجالك العملية ، وتركوا خلفهم قطعة سلاح صغيرة ، منقوش عليها فى وضوح ، عبارة صنع فى (إسرائيل) ، وكأنهم يعلنون هويتهم .. لم يكن ينقصهم سوى إعلان تجارى ، فى محطات التليفزيون .

بذل مدير الموساد جهدًا ، ليخفى التماعة عينيه ، وهو يقول :

ـ لا وجود للعملية المتقنة مائة فى المائة .. هناك دومًا احتمال للخطأ .

انهار رئيس الوزراء على مقعده ، ودفن وجهه بين كفيه ، قائلاً بكل مرارة الدنيا :

ـ فى هذه المرة سيكون الخطأ فادحًا .. للغاية .

ولم ينطق مدير الموساد بحرف واحد ..

لقد نفذ خطته بمنتهى الإحكام ..

ودون ثغرة واحدة ..

وضمن منصبًا فى المنظومة السياسية القادمة ..

ومن يدرى ، ربما يصبح وزيرًا ..

من يدرى ؟!..

من ؟!..

* * *

ارتجف جسد وصوت المزوِّر الفرنسى (روجيه) ، على الرغم منه ، وهو يقف داخل مكتب المفتش (آلان) ، وراح يتلفَّت حوله فى عصبية ، قائلاً :

ـ أنا لم أوافق .. هو طلب منى جواز السفر ، ولكننى لم أصنعه .

قال (آلان) فى صرامة :

ـ لم يتهمك أحد بشىء بعد .

سأله فى عصبية :

ـ لماذا أنا هنا إذن ؟!

زمجر (آلان) ، قائلاً :

ـ لتتعرف الشاب ، الذى ألقينا القبض عليه ، وفقًا للمعلومات التى حصلنا عليها منك .. ألم أخبرك بهذا من قبل ؟!

غمغم (روجيه) :

ـ بلى .. ولكن ..

صرخ فيه بنفاد صبر :

ـ لا يوجد لكن .. اصمت وانتظر .

أطبق (روجيه) شفتيه مرغمًا ، وإن راح يرتجف فى عصبية زائدة ، وعيناه معلقتان بعقارب ساعة الحائط ، التى بدت وكأنها قد تجمَّدت فى مكانها ، ولم تعد تسير سنتيمترًا واحدًا ..

المفتش الفرنسى أيضًا شعر بالتوتر نفسه ، والذى بدا ملحوظًا ، من فركه كفيه ، قبل أن يضغط زر جهاز اتصال قديم إلى جواره ، ويقول فى عصبية :

ـ أين (بيير) ؟!.. لماذا لم يأتِ بالشاب ؟!

أجابه أحد رجاله :

ـ إنه فى الطريق إليك يا سيدى .

رفع (آلان) عينيه إلى الباب فى توتر ، وبدت له اللحظات أشبه بدهر كامل ، قبل أن يسمع طرقات على باب مكتبه ، جعلته يكاد يثب من مكانه ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ ادخل يا (بيير) .

وفتح (بيير) الباب ..

ودخل ..

وتبعه الشاب ..

وارتجف (آلان) و(روجيه) ..

معًا ..

« أأنت واثق أنه هو ؟!.. »

ألقى (حسن) السؤال فى عصبية ، على مسامع الملحق العسكرى المصرى ، الذى قال فى قلق :

ـ ليست لدينا معلومات كافية بعد .. رجالنا نقلوا الخبر من مصادر فى قلب الشرطة الفرنسية ، ولكن أحدهم لم ير الشاب بنفسه ، وإن حصل على مواصفاته فحسب .

تساءل (حسن) فى تردُّد :

ـ وهل مواصفاته ..

لم يتم تساؤله ، ولكن الملحق العسكرى أومأ برأسه إيجابًا ، وازدرد لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ تنطبق على (أدهم) .. نعم للأسف .

انعقد حاجبا (حسن) ، وشعر بانقباضة مؤلمة فى قلبه ، وهو يغمغم :

ـ إذن فقد سقط فى قبضتهم .

تردَّد الملحق العسكرى ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ على الأرجح .

التفت إليه (حسن) ، وانعقد حاجباه فى شدة ، قبل أن يقول بدوره :

ـ نعم .. على الأرجح .

فى نفس اللحظة التى نطقها فيها ، كان (دافيد جراهام) يراجع آخر التقارير الأمنية ، فى مكتب (جونسون) ، مسئول أمن السفارة الإسرائيلية ، وهو يقول :

ـ إذن فالفرنسيون يقولون : إنهم قد أوقعوا به .

قال (جونسون) فى انفعال :

ـ إنهم يؤكِّدون هذا .

رفع (جراهام) عينيه إليه ، قائلاً فى صرامة :

ـ من وجهة نظرهم ؟!

نظر إليه (جونسون) فى تساؤل ، فأضاف فى حزم :

ـ لابد أن نراه بأنفسنا .

تساءل (جونسون) فى حذر :

ـ أتريدنا أن نلتقط صورته ؟!

هزَّ (جراهام) رأسه نفيًا ، ومال نحوه ، قائلاً :

ـ بل أن نراه .

تساءل (جونسون) بحلق جاف :

ـ مباشرة .

أومأ (جراهام) برأسه إيجابًا فى بطء ، وقال :

ـ نعم .. مباشرة .

تساءل (جونسون) ، وقد بدا حلقه أشبه بالصحراء :

ـ وكيف هذا ؟!

تألَّقت عينا (جراهام) ، وهو يجيب :

ـ بأبسط الطرق فى الوجود .. الطريق المباشر .

وتضاعف تألُّق عينيه ، مع ابتسامته الغامضة ، التى لم يفهمها (جونسون) ..

أبـدًا ..

* * *

تطلَّعت السياسية الإسرائيلية (جولدا مائير) إلى مدير (الموساد) لحظات فى صمت ، قبل أن تقول فى بطء :

ـ إذن فأنت تضمن سقوط رئيس الوزراء الحالى ، فى الانتخابات القادمة .

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يبتسم فى ثقة ، قائلاً :

ـ بنسبة ثمانين فى المائة .

مطَّت شفتيها ، وكأنما لا تروق لها هـذه النسـبة ، ثم تراجعت فى مقعدها ، تسأله :

ـ ماذا تنتظر فى المقـابل ؟!

تـألَّقت عينـاه لهذا السؤال المباشر ، وأجـاب فى لهفـة ، لـم يحاول إخفاءها :

ـ ما تجودين به .

سألته فى حذر :

ـ البقاء فى منصبك ؟!

تألَّقت عيناه أكثر ، وهو يقول :

ـ أو الوزارة .

اعتدلت بحركة حـادة ، وانعقد حاجباها الكثـان ، وهى تتطلَّع إليه ، فأردف ، ولعابه يكاد يسيل لهفة :

ـ وزارة الدفاع .

وانعقد حاجباها أكثر .

وأكثر ..

وأكثر ..

تمامًا مثلما انعقد حاجبا المفتش (آلان) ، فى اللحظة نفسها ، فى قلب (باريس) ، مع خطورة تلك المعلومة ، التى أدلى بها (روجيه) ، فى وجود الشاب ..

لقد كانت معلومة شديدة الخطورة ..

بحق .

* * *

11- شاب .. وشاب ..

على الرغم من التهامه شطيرة ضخمة ، فى شراهة واضحة ، بدا (قدرى) شاردًا تمامًا ، وهو يسير إلى جوار نيل (مصر) ، وذهنه كله يفكِّر فى أمر واحد ..

(أدهم) ..

لم يكن يدرى ، هل قام بالتصرُّف السليم ، عندما أخفى عن رجال المخابرات كل ما فعله من أجله ؟!

أيهما أكثر أهمية .. أن يثق فى صديقه ، أم يسعى لإنقاذه ؟!.. أيهما ؟!..

لم يكن ذهنه قادرًا على اتخاذ قرار حاسم فى هذا الشأن ، مما جعل عقله شاردًا تمامًا ، وهو يعبر الطريق ، و ....

فجأة ، ارتفع صرير إطارات مسرعة ، قبل أن يشعر بصدمة فى جانبه الأيسر ، ألقت جسده المكتظ أرضًا فى عنف ..

لم تكن الصدمة قادرة على اختراق طبقة الدهن المحيطة بجسده ، إلا أنه ظلَّ مستلقيًا على الأرض ، مفتوح العينين ، وكأنه لقى مصرعه ، حتى عندما اندفع قائد السيارة التى صدمته إليه ، وهو يهتف مذعورًا :

- يا إلهى !.. هل .. هل ..

غمغم (قدرى) فى هدوء ، لا يتناسب قط مع الموقف :

- أنا بخير .

انحنى قائد السيارة يفحصه فى اهتمام ، وهو يقول فى توتر :

- اطمئن .. أنا طبيب .. سأقوم بكل ما يلزم من أجلك .. اطمئن .

كرَّر (قدرى) ، وهو يحاول النهوض :

- أنا بخير .

برزت زوجة قائد السيارة مذعورة ، وهى تحمل طفلتها الصغيرة ، متسائلة فى هلع :

- (توفيق) .. هل .. هل ..

أجابها زوجها فى توتر :

- إنه بخير .

كان (قدرى) يحاول النهوض ، ولكن جسده الضخم منعه من هذا ، فتعاون المحيطون به على إيقافه ، وما إن وقف على قدميه ، حتى فحصه الطبيب بعينيه فى سرعة ، وغمغم فى شىء من الارتياح :

- أنت تقف على قدميك .. هذه علامة جيدة .

حاول (قدرى) أن يبتسم ، وهو يقول :

- اطمئن يا دكتور .. أنا بخير .

تنفس الرجل الصعداء ، وكذلك فعلت زوجتـه ، وابتسمت ، وربما لأوَّل مرة ، منذ وقع الحادث ، فبادلها (قدرى) ابتسامة ودود ، وتطلَّع إلى الطفلة التى تحملها ، وهو يسأل الطبيب :

- ابنتك ؟!

أجابه الرجل بابتسامة حانية :

- ابنتنا الوحيدة (منى) .. أنجبناها بعد عشر سنوات زواج .

ابتسم (قدرى) للطفلة ، ولكنها دفنت وجهها فى صدر أمها خجلاً ، فقال الطبيب ، وهو يعود مع (قدرى) إلى سيارته :

- لا عليك .. إنها طفلة وحيدة ، ونادرًا ما تلتقى بغرباء .

تمتم (قدرى) :

- لا بأس .

اتجه نحو الزوجة ، وصافحها ، قائلاً :

- لا تنزعجى يا سيِّدتى .. أنا بخير .

تنهَّدت قائلة :

ـ حمدًا لله .

التفتت إليه الصغيرة ، وتطلَّعت إلى عينيه لحظـة ، فابتسم لها فى حنان ، فمالت نحوه ، ومـدَّت يدها الصغيرة تتحسَّس وجهه المكتظ ، ثم أطلقت ضحكة طفولية صافية ، وأخفت وجهها مرة أخرى فى صدر أمها ، التى هتفت فى دهشة :

ـ رباه !.. إنها أوَّل مرة تفعل فيها هذا مع غريب .

ابتسم الطبيب فى حنان ، وقال :

ـ لقد أحبتك .

غمغم (قدرى) ، فى تأثر شديد :

ـ أو ربما شعرت أننى لست غريبًا .

لم يدر وهو ينطقها ، أن هذا اللقاء سيمثل ذكرى كبيرة له فى المستقبل .. وأن تلك الصغيرة ستصبح واحدة من أقرب نساء الأرض إليه ..

وسيرتبط مصيرها بمصيره .

كثيرًا .

وطويلاً ..

لم يشعر بهذا وهو يصافح والدها الدكتور (توفيق) ، قائلاً :

ـ ربما لن يتناسب الحديث مع الموقف ، ولكننى سعيد جدًّا بمقابلتكم جميعًا يا دكتور .

غمغم الطبيب مبتسمًا :

ـ صدقنى عندما أقول : وأنا أيضًا .

تصافحا ، وعاد الطبيب وزوجته إلى سيارتهما ، وانصرف المارة الملتفون حولهم ، ولوَّح (قدرى) بيده لـ (منى) الصغيرة ، التى أطلقت ضحكة صافية أخرى ، ثم لوَّحت له بيدها لدقيقة ، قبل أن ينطلق والدها بالسيارة مبتعدًا ..

وفور ابتعادها ، استدار (قدرى) ليواصل طريقه ، ولكنه شعر بيد قوية تمسك ذراعه ، وسمع رجلاً يقول :

ـ حمداً لله على سلامتك يا سيد (قدرى) .

التفت إليه (قدرى) فى دهشة متوترة ، قائلاً :

ـ هل تعرفنى ؟!

أجابه فى شىء من الصرامة :

ـ الجميع عندنا يعرفونك .. وينتظرونك .

قال (قدرى) ، فى دهشة مذعورة :

ـ الجميع ؟!

جذبه الرجل فى صرامة واضحة ، قائلاً :

ـ قلت : إنهم ينتظرونك .

فى نفس اللحظة التى نطق فيها العبارة ، توقَّفت سيارة كبيرة إلى جوارهما ، ودفع الرجل (قدرى) إليها ، وهو يضيف :

ـ وهم لا يحبون الانتظار طويلاً .

وانطلقت بهما السيارة ..

إليهم ..

* * *

انعقد حاجبا المفتش الفرنسى (آلان) فى توتر ، وهو يراجع إفادة (روجيه) بشأن الشاب ، فى نفس اللحظة التى دخل فيها مساعده (بيير) إليه ، قائلاً :

ـ مسئول من السفارة الإسرائيلية ، يطلب مقابلتك يا سيدى .

بدا الضيق على وجه (آلان) ، وهو يقول :

ـ وماذا يريد منى مسئول السفارة الإسرائيلية ؟!

أشار (بيير) بيده ، مجيبًا :

ـ لقد أتى بشأن ذلك الشاب ، الذى ألقينا القبض عليه .

مطَّ (آلان) شفتيه ، وقال فى حنق :

ـ وما شأنهم به ؟!

فتح (بيير) شفتيه ليجيب ، ولكن (آلان) قاطعه قائلاً :

ـ لا بأس على أية حال .. دعه يدخل .

تراجع (بيير) على الفور ، ومضت لحظة من الصمت والسكون ، قبل أن يدخل (جراهام) ، قائلاً بفرنسية سليمة :

ـ مساء الخير أيها المفتش .

تطلَّع إليه (آلان) فى اهتمام ، وقال :

ـ تتحدَّث الفرنسية بإتقان مدهش أيها الإسرائيلى .

جلس (جراهام) أمامه ، دون أن يدعوه لهذا ، وقال :

ـ هكذا الدبلوماسيون فى كل دولة[*] .

تنهَّد (آلان) بنفاد صبر ، وتراجع فى مقعده ، وهو يسأله :

ـ عظيم .. وماذا يريد منا دبلوماسى إسرائيلى ؟!

(*) اللغة الفرنسية هى لغة الدبلوماسية الرسمية ، فى الأمم المتحدة .

قال (جراهام) فى حزم :

ـ ذلك الشاب ، الذى ألقيتم القبض عليه .

سأله (آلان) فى برود :

ـ ماذا عنه ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ أنت تعلم أنه أساء إلى سفارتنا .

تراجع (آلان) فى مقعده ، قائلاً :

ـ مطلقًا .

انعقد حاجبا (جراهام) ، وهو يقول :

ـ لسنا هنا لمناقشة وجهات النظر ، أو ...

قاطعه (آلان) فى صرامة ، وهو يلتقط صورة من أمامه ، ويضعها أمام (جراهام) بحركة حادة :

ـ لا شأن للآراء الشخصية هنا .

حدّق (جراهام) فى الصورة ، وقال فى توتر :

ـ من هذا ؟!

أشار (آلان) إلى الصورة ، قائلاً :

ـ الشاب الذى ألقينا القبض عليه ، وهو ليس من أثار تلك الضجة أمام سفارتكم كما ترى .

ردّد (جراهام) فى عصبية :

ـ ولكن ..

قاطعه (آلان) ، قبل أن يكمل :

ـ مواصفاته الجسدية خدعتنا ، ولكنه لم يكن هو .. لقد خدعنا جميعًا بأسلوب محترف .

وانعقد حاجبا (جراهام) فَى شدة ...

ما زال ذلك الشاب يجيد اللعبة ، على نحو مدهش ..

ولكن أين هو ؟!..

أين ؟!

* * *

«(أدهم) يعبث بالجميع .. »

نطقها (حسن) فى توتر ملحوظ ، وهو غارق فى تفكير عميق ، فى حجرة الملحق العسكرى المصرى ، فى سفارتنا فى (باريس) ، فقال هذا الأخير فى اهتمام :

- لقد أجاد اللعبة بحق ، فاستأجر شابًا فرنسيًا، من الحى اللاتينى ، تتشابه مواصفاته الجسدية معه ، وطلب منه التعامل مع ذلك المزيف الفرنسى (روجيه) ؛ ليصنع له جواز سفر إسرائيلياً ، مما جذب الجميع إلى المزوِّر ، وصرف الأنظار عنه .

التفت إليه (حسن) ، متسائلاً فى اهتمام :

- ليفعل ماذا ؟!..

التقط الملحق العسكرى نفسًا عميقًا ، وأجاب :

- من يدرى ؟!

اعتدل (حسن) بحركة حادة ، وقال :

- نحن .. نحن يجب أن ندرى .. هذا عملنا ، وهذه مهمتنا .. أن ندرى ونعلم ونفهم .

أومأ الملحق العسكرى برأسه متفهمًا ، وقال :

- سنطلق كل رجالنا ، و ...

قاطعه (حسن) فى حزم :

- لابد من دراسة الأمر أوّلاً .

ثم نهض بحركة حادة ، وتابع فى اهتمام :

- البداية تأتى من طرح سؤال أساسى .. لماذا ؟!.. لماذا فعل (أدهم) هذا ؟!.. لماذا جذب كل الأنظار إلى شخصية الفرنسى (موريس ديلون) ، على هذا النحو الواضح ، ثم إلى الهوية الإسرائيلية ، التى يحاول انتحالها .. لماذا ؟!

غمغم الملحق العسكرى فى حذر :

- ربما ..

قاطعه (حسن) ، وهو يواصل ، وكأنه لم يسمعه :

- إنه ليس غبيًا ، ليتصرَّف على هذا النحو ، مما يضعنا أمام جواب واحد فحسب .

والتفت إلى الملحق العسكرى ، قائلاً فى انفعال :

- جواب يجعل كل الأمور منطقية مفهومة .

« وما هو ؟!.. »

ألقى مسئول الأمن الإسرائيلى (جونسون) السؤال ، على مسامع (جراهام) ، وهما يسيران معًا ، على ضفاف نهر (السين) ، فأجابه (جراهام) ، وهو غارق فى تفكير عميق للغاية :

- المنطق الوحيد هو أنه لا يحتاج إلى الهويتين .. الفرنسية أو الإسرائيلية .

سأله (جونسون) فى اهتمام :

ـ ما الذى يحتاج إليه إذن ؟!

أجابه فى حزم :

ـ جنسية ثالثة .. جنسية يمكنها السفر إلى (إسرائيل) ، دون أن تثير الشبهات ، أو تلفت انتباهنا أيضًا .

توقف (جونسون) ، يسأله :

ـ أية جنسية ؟!

توقف (جراهام) بدوره ، وصمت لحظات مفكرًا ، قبل أن يلتفت إليه ، مجيبًا :

ـ أمريكية .

هتف (جونسون) فى انفعال :

ـ بالتأكيد .. العلاقة بين (إسرائيل) و(أمريكا) ، تجعل رجالنا أكثر ألفة ، مع من يحملون الجنسية الأمريكية ، عندما يدخلون (إسرائيل) .

انعقد حاجبا (جراهام) فى شدة ، وراح عقله يدير الأمر فى سرعة ، عبر كل خلايا مخه الرمادية تقريبًا ، قبل أن يمسك ذراع (جونسون) فجأة فى قوة ، ويهتف :

ـ قل لى : متى ترحل أوّل طائرة إلى (تل أبيب) ؟!

قال (جونسون) فى توتر :

ـ بعد ساعات قليلة .

هتف به (جراهام) :

ـ أرسل رجالنا إلى المطار فورًا .. ستجده هناك الآن .

قال (جونسون) فى دهشة :

ـ دون جواز سفر ؟!

غرس أصابعه فى ذراعه أكثر ، وهو يقول :

ـ هذا ما حاول إيهامنا به .. إننا نواجه ثعلبًا .. ولكنه لن يخدع (دافيد جراهام) .. أبدًا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (قدرى) ينكمش فى مقعده ، داخل إحدى حجرات جهاز المخابرات المصرى ، وأحد ضباط الجهاز يقف إلى جواره ، قائلاً :

ـ هيا يا (قدرى) .. لا تضيع فرصة عمرك ، فى الالتحاق بالجهاز .

غمغم (قدرى) :

ـ ماذا تريدون منى بالضبط ؟!

جذب ضابط المخابرات مقعدًا ، وجلس إلى جواره ، قائلاً :

ـ هل سنعيد هذا ألف مرة طوال الليل ؟!

هزَّ (قدرى) كتفيه المكتظتين ، دون أن يجيب ، فالتقط ضابط المخابرات نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ اسمعنى جيدًا يا (قدرى) .. ربما لا يمكننا فهم تلك الصداقة العميقة ، التى تشعر بها تجاه (أدهم) ، مع قصر فترة تعارفكما ، ولكننا نقدر مشاعرك وشهامتك ، والمشكلة لا تكمن فى هذا .

غمغم (قدرى) :

ـ فيم إذن ؟!

أجابه فى أسف :

ـ فى أن الأمر قد تحولّ إلى مهمة رسمية ، والجهاز الآن يعمل جاهدًا ، على استعادة (أدهم) ، قبل أن يظفر به الأعداء ، الذين نبذل كل الجهد فى الفترة الحالية ، استعدادًا لحرب ثأرية معهم ، تتحرَّر بها أرضنا السليبة فى (سيناء) ، وكل دقيقة نفقدها ، فى هذا الصراع ، تعنى أن يتقدَّم علينا العدو خطوة إلى الأمام .. هل تدرك ما الذى يمكن أن يقود إليه هذا ؟!

غمغم ، وقد بدأ يدرك شدة المسئولية ، الملقاة على عاتقه :

ـ هزيمة .

قال ضابط المخابرات :

ـ أو تأخير لحرب التحرير على الأقل ، وربما ضياع فرصتها إلى الأبد .

ثم مال نحوه ، مضيفًا ، بلهجة ذات تأثير خاص :

ـ وكل هذا من أجل شاب واحد .

تمتم (قدرى) ، وقد ترقرقت عيناه بالدموع :

ـ إنه (أدهم) .

قال ضابط المخابرات فى هدوء خافت :

ـ أيًا كانت هويته .. إنه شاب واحد .

ثم مال نحو (قدرى) بشدة ، مضيفًا :

ـ مقابل أمة بأكملها .

سالت الدموع من عينى (قدرى) ، مع ذلك الصراع المستعر ، بين عقله وقلبه ..

ضابط المخابرات على حق ..

على حق تمامًا ..

صحيح أن (أدهم) هو أقرب الناس إلى قلبه ..

ولكنه مجرَّد شاب واحد ..

شاب ، مقابل أمة ..

ويا له من خيار مؤلم ..

وعسير ..

وشاق ..

بمن يضحى ..

بصديقه ..

أم بوطنه ؟!..

« هل يمكنكم ضمان سلامة (أدهم) ؟!.. »

ألقى السؤال من وسط دموعه ، وجسده المكتظ يترجرج على نحو ملحوظ ، فصمت ضابط المخابرات لحظة ، ثم أجاب فى حزم :

ـ بقدر استطاعتنا .

تمتم ، والدموع تغرق وجهه كله :

ـ وماذا عن هدفه ؟!

تنهَّد ضابط المخابرات ، وقال :

ـ لو كان سعيد الحظ ، فلن يمكنه بلوغه .

انتحب (قدرى) لحظات ، وقال فى بكاء واضح :

ـ فليكن .. سأخبرك كل ما لدىَّ .

أدرك الضابط أنه قد بلغ هدفه ، فمال عليه ، يقول فى اهتمام :

ـ لقد صنعت له جواز سفر آخر .. أليس كذلك ؟!

أومأ (قدرى) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بلى .

سأله الضابط فى اهتمام شديد :

ـ بأى اسم ؟!

« سيد (روبرت كال) .. »

نطق ضابط الجوازات الفرنسى الاسم ، وهو يراجع صورة جواز السفر البريطانى أمامه ، بوجه الشاب الذى يواجهه ، والذى قال فى هدوء :

ـ نعم .. كنت فى رحلة هنا فى (باريس) ، وجذبتنى النشرات السياحية ، للسفر إلى (إسرائيل) .

مطَّ ضابط الجوازات شفتيه ، وقال :

ـ النشرات السياحية لاتمنحك الكثير من الحقائق دومًا .

ثم أعاد إليه جواز السفر ، مستطردًا :

ـ على أية حال .. أتمنى لك رحلة سعيدة .

التقط (أدهم) جواز السفر البريطانى ، واستدار لينصرف ، ولكنه شعر بوخزة خفيفة فى فخذه ، جعلته يرفع عينيه بحركة حادة ، إلى الفتاة التى تقف خلفه ، والتى هتفت فى ارتباك :

ـ معذرة .. إنه دبوس بارز من حقيبتى .. تقبَّل أسفى .

وبعيدًا ، فى نفس اللحظة ، ابتسم (جراهام) ، وقال عبر جهاز اتصال خفى :

ـ سيسرى مفعول المخدر بعد دقائق خمس .. استعدوا .

وكان (أدهم) قد بدأ يشعر بالدوار .. بالفعل .

* * *

12ـ غيبوبة ..

وضع (حسن) سماعة الهاتف فى انفعال ، والتفت إلى الملحق العسكرى ، هاتفًا :

ـ كنت على حق فى استنتاجى .. (أدهم) يحمل جواز سفر بريطانيًا باسم (روبرت كال) ، به تأشيرة دخول منتقة إلى (إسرائيل) .

قال الملحق العسكرى فى دهشة :

ـ هل حصل على تأشيرتين ؟!

هزَّ (حسن) رأسه ، وقال :

ـ لقد تقدَّم بطلب تأشيرة واحدة ؛ تحسباً لاحتمال تسرب أمره إلى الإسرائيليين ، أما الثانية فقد صنعها له صديقه (قدرى) منذ البداية ، وأضافها إلى جواز السفر البريطانى ، بناءً على طلبه ، مما يعنى أن هذا كان جزءًا من خطة (أدهم) منذ البداية .

تساءل الملحق العسكرى فى حيرة :

ـ ولكن لماذا ؟!.. لو أنه ينوى فعلاً السفر إلى (إسرائيل) ، فلماذا يشعل النار هنا فى (باريس) .

أجابه (حسن) فى سرعة :

ـ حتى يجذبهم إليه .

بدت دهشة متسائلة ، على وجه الملحق العسكرى ، فتابع (حسن) ، وهو يرتدى سترته ، ويدس مسدسه فى حزامه من الخلف :

ـ (أدهم) يحاول السفر إلى (إسرائيل) ، للانتقام لوالده الراحل ، وهو يجهل اسم مغتاله فى الوقت ذاته ، لذا فقد تعمَّد إثارة غضب الإسرائيليين ، والتعامل على نحو يكشف لهم هويته إلى حد ما ، ولم يكن اختياره (باريس) عشوائيًا ؛ فهى ساحة أوَّل مواجهة بينه وبينهم ، مما سيجعلهم يذكرونه ، ويسعون خلفه .

سأله الملحق العسكرى ، وهو يرتدى سترته بدوره :

ـ وهل سيجذب هذا قاتل والده إليه ؟!

قال (حسن) ، وهو يندفع نحو الباب :

ـ أو على الأقل سيربك الموقف ، مما يضاعف من فرصته للتوصل إليه .

لحق به الملحق العسكرى ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ ولكن هذا سيضعه فى مواجهة مباشرة مع الإسرائيليين ، وهو مجرَّد شبل ، مهما بلغت مهاراته ، ولن يمكنه مواجهتهم ، بكل قوتهم وعتادهم .

توقف (حسن) لحظة ، ثم التفت إليه ، قائلاً :

ـ الشبل لم يعد شبلاً يا رجل .. لقد خاض معاركه ، وتعلم الصيد ، وبرزت أنيابه .. الشبل أصبح أسدًا يا رجل ، وصار يتوق للصيد ، ولإثبات ذاته وقدرته .

غمغم الملحق العسكرى فى دهشة :

ـ فى هذا العمر .

مطَّ (حسن) شفتيه ، وقال :

ـ سترى .

ثم واصل اندفاعته بكل قوته ..

وكل انفعاله ..

* * *

دوار شديد ، ذلك الذى اكتنف رأس (أدهم) ، وهو يبتعد عن شباك الجوازات ، فى المطار الفرنسى ..

ماذا حدث ؟!..

ماذا أصابه ؟!

دار التساؤل فى ذهنه ، وهو يبذل قصارى جهده ليتماسك ، والدوار يتزايد ..

ويتزايد ..

ويتزايد ..

إنها تلك الوخزة ..

نعم .. لقد فعلوها ..

الإسرائيليون كشفوا أمره ، على الرغم من كل ما فعله ..

باللسخافة !..

لقد تصورَّ فى لحظة أنه سيمتلك مهارة والده ، وبراعة مدربه ..

ولكن هذا مستحيل كما يبدو ...

الموهبة وحدها لا تكفى ..

هناك أيضًا الخبرة ..

خبرة المواجهة ..

والمناورة ..

والنزال ..

تلك الخبرة ، التى تمنحه القدرة على حسن تقييم وتقدير الأمور..

وعلى مواجهة الثعالب ..

وقتالهم ..

وهزيمتهم ..

وهو ، على الرغم من كل مواهبه وقدراته ، والمران الطويل الذى تلقاه ، على يد والده ومدربه ، لم يمتلك الخبرة الكافية بعد ..

ما زالت أمامه سنوات ..

وسنوات ..

وسنوات ..

كاد يفقد توازنه من شدة الدوار ، فاستند إلى الجدار ، وهو يحاول بلوغ منطقة آمنة ..

إنهم حوله حتمًا ..

يراقبونه ..

ويحاصرونه ..

ويتربصون به ..

ينتظرون سقوطه ، حتى ينقضوا عليه ، ويظفروا به ..

ولا ينبغى أن يسمح لهم بهذا ..

أبـدًا ..

تابعه (جراهام) ببصره فى ظفر ، فى هـذه اللحظات ، وقال لرجاله ، عبر جهاز الاتصال الخفى :

- تقدموا .. الفريسة مستعدة للسقوط .

بدأ رجاله حصار (أدهم) بالفعل ، وبدأ هو يشعر باقترابهم ، وهو يقاوم تلك الغيبوبة ، التى راحت تحيط برأسه فى سرعة ..

لم يكن لديه مكان واحد آمن ، داخل المطار ..

الإسرائيليون يمكنهم اللحاق به فى أى مكان ..

وأية بقعة ..

ليس أمامه إذن سوى مكتب الأمن ..

لابد وأن يحاول بلوغه ، وإقناع رجاله بأنه يعانى من مرض ما ..

مرض مخيف وشديد العدوى ..

سيخيفهم هذا ويفزعهم حتمًا ، ولكنه سيدفعهم إلى إبلاغ الحجر الصحى ، والشرطة ، وكل الجهات المعنية ..

وسيتحفظون عليه أيضًا ..

وهذا سيكفل له الحماية ..

والرعاية ..

والأمان ..

حتى بعد أن يفقد وعيه تمامًا ..

لاح له مكتب الأمن ، على بُعد خطوات ، فجرَّ قدميه جرًا ، وهو يزحف نحوه ، ولكن رجلاً عريض المنكبين ، مفتول العضلات ، جاء من خلفه ، وقال بالعبرية فى صرامة :

- ليس بهذه السرعة .

استدار (أدهم) ليواجهه ، ولكن استدارته أتت ضعيفة متخاذلة ، مع دواره الشديد العنيف ، فأمسك الرجل كتفه ، وغمغم فى مقت :

- يالعنادكم أيها المصريون .

ثم ألصق شيئًا ما بجانبه .. وضغطه ..

وانتفض جسد (أدهم) فى عنف ، مع سريان تيار الصاعق الكهربى الصغير فى كيانه ، وانطلقت من حلقه ، على الرغم منه شهقة عالية ، جذبت انتباه طاقم الأمن ، الذى التفت إليه ، ورأوه يسقط فاقد الوعى ، بين ذراعى ذلك الضخم ، الذى مط شفتيه ، وقال بفرنسية ركيكة :

- إنه ابن شقيقتى .. لقد أسرف فى الشراب و ...

لم يكمل العبارة ، فنظر إليه رجال الأمن فى شك ، وبدأ أحدهم يتجه نحوه بالفعل ، فأطلق ضحكة عصبية ، وأضاف :

- وأنتم تعرفون الباقى .

واصل رجل أمن المطار تقدُّمه نحوه ، ولكن (جراهام) ظهر فجأة ، بهيئته الدبلوماسية الأنيقة ، وهو يقول بفرنسيته السليمة :

- هل عثرت عليه أخيرًا ؟!

ثم التفت إلى رجل الأمن ، وأبرز جواز سفره الدبلوماسى ، مستطردًا فى حزم :

- إنه يعمل معنا .

أوقف جواز السفر الدبلوماسى رجل الأمن ، وجعله ينقل بصره بين (أدهم) و(جراهام) فى توتر ، فأشار هذا الأخير إلى الضخم ، وقال فى صرامة :

- سيارة السفارة تنتظر فى الخارج .

أومأ الضخم برأسه إيجابًا ، وحمل (أدهم) على كتفه ، كما لو كان طفلًا صغيرًا ، والتقط حقيبته ، واتجه به نحو باب المطار ، فى حين أعاد (جراهام) جواز سفره إلى جيبه ، وهو يقول :

- الشراب يتلف عقله تمامًا .

غمغم رجل الأمن فى توتر :

- المفترض أن أبلغ الشرطة .

أجابه فى هدوء :

- افعل يا رجل .. قم بواجبك ، ولكن لا تنسَ إذن الخارجية ... إنها القواعد الدبلوماسية .

لم ينبس رجل الأمن بكلمة ، وتابع ببصره ذلك الضخم ، حتى

ألقى جسد (أدهم) داخل السيارة ، التى وقفت أمام المطار ، حتى ركبها (جراهام) ، ثم انطلقت مباشرة ..

وكان هذا يعنى أن (أدهم) الشاب قد خسر اللعبة ..

وسقط فى قبضة الإسرائيليين فى هذه الجولة ..

الجولة الأخيرة .

* * *

على الرغم من أن رجال المخابرات ، فى كافة أنحاء العالم ، يمتلكون قدرة مدهشة على كبح جماح أنفسهم والسيطرة على مشاعرهم ، وكتمان انفعالاتهم ، إلا أن (حسن) ، رجل المخابرات المخضرم ، لم يستطع منع ذلك الشحوب ، الذى كسا وجهه وصوته ، وهو يحدّق فى وجه مسئول أمن المطار الفرنسى ، قائلًا :

- سيارة السفارة الإسرائيلية ؟!.. هل تركتموهم يرحلون به .. هكذا بكل بساطة ؟!

قال مسئول الأمن فى عصبية :

- كانوا يحملون جوازات سفر دبلوماسية ، و ...

قاطعه (حسن) فى حدة :

- وماذا عنه ؟!.. أى جواز سفر كان يحمل .

امتقع وجه مسئول الأمن ، وهو يقول :

ـ لست أدرى فى الواقع .

كاد (حسن) ينقض عليه ، من فرط غضبه ، وهو يهتف :

ـ لست تدرى ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تركتهم يحملونه خارج المطار ، تحت سمعك وبصرك .. بل تحت سمع وبصر طاقم أمنك كله .

غمغم الرجل ، فى ارتباك شديد :

ـ جوازاتهم دبلوماسية .

كان (حسن) يهم بالانفجار فى وجهه ثورة ، عندما وصل الملحق العسكرى للسفارة المصرية ، وهو يقول فى توتر :

ـ إنه هو ... ضابط الجوازات تعرَّفه باسم (روبرت كال) ، البريطانى الجنسية .

أمسك (حسن) طرف مكتب مسئول الأمن الفرنسى ، حتّى لا يسقط ، من فرط الدوار الانفعالى الذى يشعر به ، وراح يردِّد فى مرارة شديدة :

ـ إنه هو ... لقد ظفروا به .. هذا ما كنت أخشاه .. لقد ظفروا به .. إنه الآن فى قبضتهم .

شعر مسئول الأمن لحظات بتوتر شديد ، وبدا له أنه قد ارتكب أكبر حماقة فى حياته كلها ، وراح ذهنه يفتش مذعورًا عن أى تفسير ،

يمكن أن يعفيه من المسئولية ؛ لثقته فى أن جوازات السفر الدبلوماسية للإسرائيليين لم تكن لتعفيهم من مواجهة القانون ، فى فعلة مباشرة كهذه ، ثم لم يلبث أن انتبه إلى نقطة ، جعلته يهتف :

ـ مهلاً .. ما شأن المصريين بما حدث .. إنها مشكلة بين الإسرائيليين وبريطانى .

ارتفع صوت صارم يقول :

ـ هذا لا يعفيك من المسئولية .

ظهر المفتش (آلان) مع مساعده بيير ، وأبرز بطاقته أمام المسئول ، مستطردًا :

ـ وستتم محاسبتك على هذا فيما بعد .

بلغ امتقاع وجه مسئول الأمن ذروته ، وانكمش فى مقعده على نحو يدعو للرثاء ، فى حين التفت المفتش (آلان) إلى (حسن) والملحق العسكرى ، مواصلاً بنفس الصرامة :

ـ ولكن دعانى أطرح عليكما السؤال نفسه .. ما شأنكم كمصريين بما حدث ؟

تبادل (حسن) والملحق العسكرى نظرة صامتة ، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة ، فأشعل المفتش الفرنسى سيجارة قصيرة ، وقال ، وهو يقودهما بعيدًا عن مكتب الأمن :

ـ فليكن .. سأجيبكما أنا ، ما دمتما تعجزان عن الجواب .. الواقع أن الأمر يرجع إلى أن (روبرت كال) هذا ليس بريطانيًا .

ظلت ملامحهما جامدة ، لا تحمل أية انفعالات ، يمكن أن يستشف منها شيئًا ، فبدت عليه العصبية ، وهو ينفث دخان سيجارته القصيرة ، قبل أن يقول :

ـ إنه إما مصرى يعمل لحسابكم ، أو إسرائيلى ، يتعاون معكم ، فأى التفسيرين صحيح ؟!

صمت الرجلان لحظات ، ثم قال الملحق العسكرى فى برود :

ـ إنه صغير السن ، كما تقول التقارير .

لوَّح المفتش بيده ، قائلاً :

ـ وهذا يشير إلى أنه لا يعمل لحسابكم ؛ فلم نر أجهزة دبلوماسية أو أمنية من قبل ، تتعاون مع من فى مثل عمره .

قال (حسن) فى صرامة ، أخفى بها توتره :

ـ إذن ؟!

أشار المفتش بسبَّابته ، قائلاً فى حزم :

ـ إذن فهو إسرائيلى يتعاون معكم ، ولكن ترتيب الأحداث يوحى بأن هذا مستحيل .

سأله (حسن) فى حذر :

ـ لصغر سنه .

أجابه مساعده (بيير) فى سرعة :

ـ كلا ، ولكن لأنه كان يحاول الحصول على تأشيرة دخول إلى (إسرائيل) ، بجواز سفر فرنسى .

سأله (حسن) بنفس السرعة :

ـ أأنت واثق من أنه الشخص نفسه ؟!

عند هذا السؤال ، ارتبك الفرنسى بحق ، على الرغم من محاولته التظاهر بالتماسك ، وهو يقول :

ـ أعتقد أنه .. أنه كذلك .

غمغم الملحق العسكرى فى صرامة :

ـ تعتقد ؟!

ارتبك المفتش أكثر ، ثم قال فى حدة :

ـ فليكن .. ربما هو ليس الشخص نفسه ، فمواصفاته تختلف إلى حد ما ، ولكن هذا يبقينا داخل السؤال الأول ذاته .. ما شأن المصريين بالأمر ؟!

اندفع (حسن) يقول فى صرامة :

ـ إنه يعمل معنا .

سأله المفتش فى سرعة :

ـ بصفة رسمية ؟!

لم يجب (حسن) السؤال ، فتراجع المفتش ، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً :

ـ إنه هو .

قال الملحق العسكرى فى صرامة :

ـ لا يمكنك الجزم .

أومأ المفتش برأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

ثم استعاد صوته الصارم ، وهو يكمل :

ـ ولكننى سأتولى التحقيق الرسمى فى الأمر ، وسنبدأ طبعًا بالبحث عن أية معلومات عن (روبرت كال) .. تاريخ دخوله ، وفترة زيارته .. أين أقام ، وماذا فعل .. ولو أننا لم نعثر على تلك المعلومات ، فسيعنى هذا أنه رسميًا لم يصل إلى (باريس) أبدًا ، وهذا يعنى بالتالى أنه لم يختفِ ، ولم يختطف ، باختصار .. إنه يغلق الملف تمامًا .

ومال نحو (حسن) ، مضيفًا بشىء من الشماتة :

ـ ولن يبحث عنه أحد قط .

سيَطر (حسن) على ملامحه ، بأسلوب يليق برجل مخابرات مخضرم محترف ، فتراجع المفتش الفرنسى مرة أخرى ، وقال فى صرامة غاضبة :

ـ والآن ، ومع احترامى لجوازيكما الدبلوماسيين ، تفضلا بمغادرة المكان ، فهو مسرح جريمة ، لا يصح العبث به ، أو تواجد من لا شأن لهم فيه .. تفضلا .

رمقه (حسن) بنظرة نارية ، وقال :

ـ سنلتقى مرة أخرى .

أجابه المفتش فى صرامة :

ـ هذا ما أرجوه .

انصرف الرجلان من المكان ، واتجها نحو مخرج المطار ، والملحق العسكرى يتساءل فى توتر :

ـ ماذا سنفعل الآن ؟! الفتى أصبح فى قبضتهم بالفعل !

أجابه (حسن) وهو يحاول التماسك :

ـ نسيطر على أعصابنا ، ونفكِّر فى عمق وروية ، حتى نجد وسيلة لإنقاذه .

نطقها وهو يعلم أنه أول من يعجز عنها ..

إنهما يتحدثان عن (أدهم) ..

(أدهم) ابن صديق عمره ، والفتى الذى شارك فى تربيته منذ طفولته ، والذى اعتبره ابنه ، بعد وفاة (صبرى) ..

وهنا تكمن المشكلة ..

ربما لو أن الأمر يتعلق بسواه ، لأصبحت مجرد مهمة ، يمكن أن يقوم بها على أكمل وجه ..

ولكنه الآن يشعر بضعف شديد ..

يشعر بتخاذل ، ربما يجعله غير قادر على اتخاذ القرار السليم ..

وربما من الأفضل أن يسند العملية كلها لشخص آخر ..

شخص لا يعرف (أدهم) ، ولا يشعر نحوه بأية عاطفة ..

ولكن الوقت لن يكفى لهذا ..

لن يكفى أبدًا ..

للأسف ..

« المهم أن نفعل شيئًا ، قبل أن يرسلوه فى حقيبة دبلوماسية إلى هناك .. »

نطقها الملحق العسكرى فى توتر شديد ، وعلى الرغم من أن (حسن) قد استنتج الجواب المنطقى بالفعل ، فقد سأل الملحق

العسكرى فى صوت مضطرب :

- إلى أين ؟!

وأتاه الجواب كالصاعقة :

- إلى (إسرائيل) !

وانتفض جسد (حسن) ..

بمنتهى العنف .

* * *

13ـ العـــذاب ..

لابد أن ينتقم ..

لابد ..

لقد فعل كل هذا ليثأر لوالده ممن اغتالوه بيد الغدر ..

ولن يسمح لنفسه بأن يخسر ..

أو يفشل ..

أو يتراجع ..

سيقاتل ..

ويقاتل ..

ويقاتل ..

حتى آخر رمق ..

وآخر نفس ..

وآخر قطرة دم ..

« لا يا (أدهم) .. لم يحن الوقت بعد .. »

أدهشه أن يسمع صوت والده بكل هـذا الوضوح ، فتلفَّت حولـه ،

محاولاً أن يخترق ببصره هـذا الضـباب الكثيف ، المحيط به مـن كل جانب ، وهو يهتف :

ـ أبى .. أين أنت ؟!.. أين ؟!

أتاه صوت والده المعتاد ، وهو يقول فى رصانة ، لا تخلو مـن الصرامة :

ـ لا تبحث عنى يا (أدهم) .. ابحث عن كلماتى .. عن كل ما لقنتك إياه فى حياتى .. ابحث عما تعلمته منى ، وما تدربت عليه طوال حياتك .. وتذكر القاعدة الذهبية .

تساءل فى حيرة :

ـ أية قاعدة ؟!

أجابه فى حزم :

ـ الوقت المناسب يا (أدهم) .. لا تضرب ضربتك قط ، قبل أن يحين الوقت المناسب .

عاد (أدهم) الشاب يتلفت حوله ، وهو يتساءل :

ـ أتعنى ألا أحاول الانتقام لك ، ممن اغتالوك غدرًا وغيلة ؟!

أجابه صوت والده ، وهو يتابعه فى بطء :

ـ أعنى أن تتعلَّم الصبر والتريث ، حتى تصبح اللحظة مناسـبة يا (أدهم) .. الشبل لا يتحوَّل فى يوم وليلة إلى أسد .. كل شىء له موعده يا (أدهم) .. كل شىء .

تساءل (أدهم) فى توتر شديد :

ـ إذن فينبغى أن أنتظر ، حتى أعرف وأستعد .

بدا صوت والده شديد البعد ، وهو يقول :

ـ بالضبط .. إنه درس جديد تتعلمه يا ولدى .. درس أخير .

ظلّت الكلمة الأخيرة تتردّد فى أذنيه ، وهو يتلفت حوله ..

ويتلفت ..

ويتلفت ..

والضباب يتكاثف ..

ويتكاثف ..

ويتكاثف ..

و ...

« إنه يستيقظ .. »

اخترق الصوت أذنيه ، دون أن يبدو مصدره واضحًا ، وإن شعر أنه قريب للغاية ، فقاوم ذلك التهالك الشديد ، الذى يشعر به ، وفتح عينيه فى صعوبة ، ليحدق فى (دافيد جراهام) الواقف أمامه ، والذى ابتسم فى ظفر ، قائلاً لطبيب السفارة الإسرائيلية :

ـ أنت على حق .. لقد استعاد وعيه .

انحنى الطبيب يفحص (أدهم) ، الذى شعر بسماعته الباردة على صدره ، على نحو بعث فى نفسه قشعريرة خافتة ، قبل أن يقول الطبيب :

ـ إنه قوى ، وحالته الجسمانية ممتازة .. سيكون مستعدًا للاستجواب ، بعد دقائق قليلة .

غمغم (جراهام) ، وعيناه تلتمعان فى ظفر :

ـ عظيم .

تراجع الطبيب فى حركة متوترة ، ووقف صامتًا فى ركن المكان ، الذى بدا لـ (أدهم) أشبه بقبو رطب ، فتمتم ، وهو يحاول استعادة السيطرة على عقله :

ـ أين جئتم بى ؟!

المدهش أنه ، على الرغم من تشتته الذهنى ، نطقها بلغة إنجليزية سليمة ، مواصلاً انتحال شخصية (روبرت كال) ، فابتسم (جراهام) ، وجذب مقعدًا ، ليجلس أمامه ، قائلاً :

ـ لن يجدى هذا .. نحن نعلم أنك مصرى .

رفع (أدهم) عينيه إليه ، والتقت نظراتهما لحظات ، دون أن ينبس (أدهم) ببنت شفة ، أو يبدى انفعالاً مؤيدًا أو نافيًا ، فتابع (جراهام) فى هدوء ظافر :

ـ السؤال الذى نحتاج إلى معرفة إجابته فعليًا هو : لماذا يطاردك المصريون ؟!

لم يكد السؤال يخترق أذنى (أدهم) ، حتى استوعب منه الكثير ..

والكثير جدًا ..

فهذا السؤال بالتحديد يعنى أنهم لا يعرفون تحديدًا من هو ...

ولماذا أتى ..

وماذا يفعل ..

وإلى ماذا يسعى ..

وهذا يمنحه فرصة للخداع ..

والتلاعب ..

والتحايل ..

« حاول أن تستنتج .. »

نطقها (أدهم) فى بطء متحد ، جعل (جراهام) يعقد حاجبيه فى شدة ، ويقول مستنكرًا فى غضب :

ـ أستنتج ؟!..

ثم مال نحوه ، حتى كاد يلتصق به ، وهو يضيف :

ـ إننى حتى لن أحاول .. ستدلى أنت إلىَّ بكل ما لديك ، وكل ما تعرفه عن نفسك ، قبل أن أنتهى منك .

حملت نظرة (أدهم) المزيد من التحدى ، على نحو استثار مسئول أمن السفارة الإسرائيلية (جونسون) ، والذى بقى صامتًا منذ البداية ، فقال فى سخط :

ـ إنه يتحدانا .

أشار إليه (جراهام) بالصمت ، ثم سأل (أدهم) بمنتهى الصرامة :

ـ ما اسمك الحقيقى ؟!

أجابه (أدهم) ، بصوت حمل رنة ساخرة :

ـ (روبرت كال) .

بدا (جراهام) أكثر صرامة وشراسة ، وهو يقول :

ـ كلانا يعلم أنه ليس اسمك الحقيقى .. كل الأسماء التى حملتها حتى الآن ، ليست اسمك الحقيقى حتمًا ، ولا حتى اسم (أدهم صبرى) ، الذى حملته فى المرة السابقة .

ابتسم (أدهم) الشاب فى سخرية ، مقلدًا أحد الأشخاص ، الذين أثاروا إعجابه فيما مضى :

ـ هل تظن هذا حقًا ؟!

تراجع (جراهام) ، قائلاً :

ـ وأنت ستمنحنى الجواب المناسب .. الآن .

قال (أدهم) ، بنبرة تفيض بالتحدى :

ـ هذا ما تتمناه .

انعقد حاجبا (جراهام) فى شدة ، فى حين اندفع (جونسون) يقول ، فى غضب هادر :

ـ اتركه لى يا أدون (جراهام) ، وسأجعله يروى قصة حياته كلها ، بعد ساعة واحدة .

استدار إليه (جراهام) بحركة حادة ، هاتفًا بكل الصرامة :

ـ اصمت .

صدم (جونسون) للقول ، وتراجع فى حنق ، وراح يهمهم ببضع كلمات غير مفهومة ، فى حين أشار (جراهام) إلى الطبيب ، وقال :

ـ يمكنك أن تبدأ .

التقط الطبيب محقنًا ، يحوى مادة شفافة ، ومال نحو (أدهم) ، وكشف ذراعه المقيدة إلى المقعد المعدنى الضخم ، الذى يجلس عليه ، فقال (أدهم) فى بطء :

ـ بنتوثال الصوديوم(*) .

قال (جراهام) ، والطبيب يحقن (أدهم) بتلك المادة بالفعل :

ـ من الواضح أنك تعرف الكثير ، ولكنها ليست كذلك .. إنه عقار خاص ، يضاعف من شدة مرور التيار الكهربى فى جسدك .

تمتم (أدهم) فى حذر :

ـ تيار كهربى ؟!

أشار (جراهام) إلى بعض الرجال ، فراحوا يوصلون رأس (أدهم) بعدد من الأسلاك ، و(جراهام) يجيب بعينين متألقتين ، توحيان بأنه يستمتع بكل ثانية :

ـ بالضبط .. تيار كهربى سيسرى فى عقلك بشدة ، على نحو تشعر معه وكأن مخك يغلى داخل جمجمتك ، وبعد دقيقة واحدة ، ستكون مستعدًا للوشاية بأمك نفسها ، على ألا تمر بهذا العذاب مرة ثانية .

ثم أشار بيده ، مضيفًا فى صرامة وحشية :

ـ هيا .

وضغط أحد الرجال زرًا ، يتصل بالجهاز الذى تخرج منه الأسلاك ..

(*) مادة يطلق عليها اسم (مصل الحقيقة) ، لأنها تضع من بها فى حالة لا تسمح له بابتكار الأكاذيب ، فينطق الحقائق .

وانطلق التيار الكهربى إلى رأس (أدهم) ، الذى لم يستطع كبت صرخة مدوية ، انطلقت عبر حلقه ..

لقد شعر بالفعل أن مخه يغلى داخل جمجمته ..

ويغلى ..

ويغلى ..

ويغلى .

* * *

« ما تقوله مستحيل يا سيد (حسن) !!.. »

هتف الملحق العسكرى بالعبارة فى عصبية شديدة ، تجاهلها (حسن) تمامًا ، وهو يدس مسدسه فى حزامه ، ويندفع نحو الباب ، قائلاً بكل الحزم :

ـ لن أسمح لهم بإرساله إلى هناك .. أبدًا .

لحق به الملحق العسكرى ، وهو يهتف :

ـ ولكن ما ستقدم عليه يعد منتهى الحماقة ، فى ظروف كهذه .. من سيسمح لك بهذا .

أجابه (حسن) فى إصرار :

ـ لا أحد .. ولن يمنعنى هذا من تنفيذه .

توقف الملحق العسكرى ، هاتفًا فى يأس :

ـ قد يعرضك هذا للفصل من الخدمة .

توقَّف (حسن) بدوره ، والتفت إليه ، وكأنما صدمه القول ..

وفى ذهنه تداعت عدة صور وأسماء ..

وتوقَّفت أفكاره عند صورة واحدة ..

(صبرى) ..

توقف عندها كثيرًا ..

وطويلاً ..

وحزينًا ..

ثم امتزجت صورة (صبرى) بصورة (أدهم) ، وتردَّد فى ذهنه صوت صديق عمره ..

« لو لم يمهلنى القدر ، ستكمل أنت مسيرتى بإذن الله يا (حسن) .. عامل (أدهم) كما لو كان ابنك ، وامنحه كل رعايتك وحبك واهتمامك ، وأكمل التجربة .. أكملها كما لو أنها تجربتك أنت .. أكملها يا (حسن) .. من أجل (أدهم) .. ومن أجلى .. »

فاضت عيناه بالدموع ، عند هذه النقطة ، وغمغم فى حزم متأثر :

ـ من أجلك يا (صبرى) .. إننى أفعلها من أجلك ..

واندفع نحو سيارة السفارة ، وقفز فيها ، وأدار محركها ، فردَّد الملحق العسكرى فى استسلام :

ـ سيفصلونك .

ألقى عليه (حسن) نظرة واحدة ، تفيض بالحزم والتحدى ..

ثم انطلق بالسيارة ..

انطلق ليقدم على ما اعتزمه ..

من أجل صديق عمره ..

من أجل (صبرى) ..

* * *

تألَّقت عينا (جراهام) ، كما لم تتألقا من قبل ، وارتسمت وحشية مخيفة على ملامحه ، وهو يتطلَّع إلى (أدهم) ، الذى بدا شديد التهالك ، على نحو لم يمر به من قبل ، فى حين غمغم الطبيب الإسرائيلى فى عصبية :

ـ خطأ يا أدون (جراهام) .. خطأ .. عقله لن يحتمل كل هذا .. ربما يصاب بحالة من الذهان ، أو بفقدان ذاكرة ، يضيع معه كل ما ترغب فى الحصول عليه منه .

قال (جراهام) فى صرامة :

ـ فليذهب عقله إلى الجحيم .. المهم أن أحصل منه على ما أنشده .

قال الطبيب فى حدة :

ـ فليكن يا أدون (جراهام) .. افعل ما يحلو لك ، ولكننى سأتقدم بشكوى رسمية ، وسيتضمن تقريرى كل ما حدث هنا ، وكل ما نصحتك به ، وإذا ما فشلت فسوف ..

قاطعه (جراهام) فى شراسة :

ـ اصمت .

ثم هبَّ من مقعده ، واندفع نحوه ، ودفعه فى قسوة ، حتى التصق بالجدار ، ومال يصرخ فى وجهه :

ـ (دافيد جراهام) لا يفشل أبدًا .. لم يفشل ولن يفشل .. هل فهمت أيها المدنى المتحذلق ؟!

شحب وجه الطبيب ، وهو يحدِّق فى وجهه ، قبل أن يقول متلعثمًا :

ـ إنه رأى طبى محض .

زمجر (جراهام) ، قائلاً :

- احتفظ به إذن خلف أسنانك ، لو أردت الاحتفاظ بها سليمة ..

شحب وجه الطبيب أكثر ، واتسعت عيناه غير مصدق ما سمعته أذناه ، وحدَّق فى وجه (جراهام) فى ارتياع ، وارتجفت شفتاه ، وهو يهم بقول شىء ما ، لولا أن اندفع مسئول الأمن الإسرائيلى إلى المكان ، هاتفًا :

- عرفنا من هو .

التفت (جراهام) إلى (جونسون) بحركة حادة ، فأكمل هذا الأخير ، وهو يشير إلى (أدهم) المقيَّد إلى ذلك المقعد المعدنى ، والذى بدا أشبه بالصريع ، مع ملامحه الشديدة الشحوب ، وخيط الدم الذى يسيل من بين شفتيه :

- (أدهم) هو اسمه الحقيقى ، وهو ليس شخصًا مجهولاً ، أو مجرَّد مغامر شاب كما تصوَّرنا .. إنه ابنه .

ارتجف صوت (جراهام) ، من فرط انفعاله ، يسأل :

- ابن من ؟!

صاح (جونسون) فى توتر شديد :

- (صبرى) .. رجل المخابرات ، الذى تمت تصفيته فى (لندن) .

تفجَّرت نيران بركانية من عينى (جراهام) ، وهو يقول بمنتهى الشراسة والعنف :

- ابنه ؟!

انتقلت نظراته إلى (أدهم) ، ثم اندفع نحوه ، وجذبه من شعره ، هاتفًا :

- لماذا أتيت إذن ؟!.. للانتقام ؟!

غمغم الطبيب فى عصبية :

- لا يمكنه إجابتك .. إنه فاقد الوعى .

وضغط على أسنانه ، مضيفًا فى حنق :

- بسبب ما فعلته به .

استدار إليه (جراهام) ، وبدا وكأنه قد فقد تمامًا سيطرته على أعصابه ، وهو يصرخ :

- قلت اصمت .

ثم عاد يجذب شعر (أدهم) فى عنف ، صارخًا :

- لابد وأن يجيب .. لابد .

لم يكن (أدهم) فاقد الوعى فعليًا فى تلك اللحظة ، على الرغم من أن مخه يكاد يذوب بالفعل داخل جمجمته ..

لقد سمع كل ما دار حوله ، وإن وجد صعوبة شديدة فى تركيز أفكاره وتصفية ذهنه ..

إنه يتحدثون عنه ..

وعن والده ..

وعن اغتياله فى لندن ..

هذا يعنى أنهم عرفوه ..

وكشفوه ..

وأصبح فى قبضتهم ..

والده كان على حق إذن ..

من الخطأ أن ينطلق الشبل للصيد ، قبل اكتمال نموه ..

وقبل أن تبرز أنيابه ..

لابد وأن ينتظر ، وأن يتعلم الصبر ، حتى ولو استغرق الأمر منه سنوات وسنوات وسنوات ..

المهم أن ينطلق فى الوقت المناسب ..

وأن يربح معركته ..

معركة أسد ناضج ، وقوى ..

أسد له أنياب قوية ، بارزة ، حادة ، قادرة على صيد فرائسه ، وتمزيقها بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

بذل جهدًا رهيبًا ، ليصفى لمحة من ذهنه ؛ حتى يمكنه السيطرة على تفكيره ، وإيجاد وسيلة للخروج من هذا المأزق ..

إنه مقيد إلى مقعد معدنى ثقيل ، داخل قبو رطب ، فى وجود ثلاثة إسرائيليين ، أحدهما مستعد لتمزيقه إربًا ، ليحصل منه على كل المعلومات الممكنة ..

فكيف يمكنه مواجهة كل هذا ؟!..

كيف ؟!

كيف ؟!

لم يشعر فى حياته كلها بمثل هذا التهالك ..

لم يمر قط بحالة مماثلة ، عجز فيها عقله عن التفكير ..

ربما يعنى هذا أنه قد خسر اللعبة ..

وفشل فى أوّل محاولة صيد منفردة ..

« هيا .. هات ما لديك .. »

صرخ (جراهام) بالعبارة فى وجهه ، بكل غضب وشراسة الدنيا ، وقد بلغ انفعاله مداه ، و ...

وفجأة ، وعلى الرغم من تهالكه ، وبحركة غريزية بحتة ، تحرّك (أدهم) ..

على الرغم من ذوبان مخه داخل جمجمته ، تحرّك جسده فى عنف ، وركل (جراهام) بكل ما تبقى له من قوة ركلة مفاجئة ، دفعته إلى الخلف ، ليسقط أرضًا ، وهو يطلق سبابًا عبريًا ، يجمع ما بين الألم والدهشة والاستنكار ..

ومع شهقة الذعر ، التى انطلقت من حلق الطبيب ، تحرّك (جونسون) فى سرعة ، وسحب مسدسه ، وهو يهتف :

ـ أيها الـ ...

ولكن (أدهم) قاطعه بحركة عجيبة ، بدت للطبيب المذعور صورة مجسمة لمعجزة بشرية ، لم يتصورٌ أبدًا مجرّد احتمال حدوثها ..

فعلى الرغم من ثقل المقعد المعدنى ، نهض (أدهم) على قدميه ، ورفعه معه ، ثم اندفع به نحو (جونسون) ، الذى تراجع صارخًا :

ـ لا .. توقّف .

وبكل القوة والعنف ، ضربه (أدهم) بظهر المقعد المعدنى ، ودفعه أمامه ، وهو يعدو إلى الخلف ، حتى ضربه بالجدار بكل

القوة والقسوة ، فانطلقت من حلق (جونسون) صرخة ألم ، وأغلق عينيه بشدة ، فى نفس اللحظة التى نهض فيها (جراهام) ، وهو يمسك صدره بيسراه ، ويسحب مسدسه بيمناه ، صارخًا :

ـ فليكن يا ابن (صبرى) .. أنت أردتها .

وفى مبنى السفارة الإسرائيلية فى (باريس) ، دوت رصاصة ... قاتلة .

* * *

14ـ الختـــــام ..

ارتفع صرير إطـارات سيارة (حسن) ، وهو يوقفها بحركـة حادة ، فى الشـارع المجـاور لمبنـى السـفارة الإسـرائيلية ، وبكـل الحزم ، تـأكد من حشـو مسدسـه بالرصاصـات ، ومـن اسـتعداده للإطلاق ، ثم عاد يدسه فى حزامه ، وغادر سيارته ، متجهـاً إلـى مبنى السفارة ..

كان يدرك تمامًا أن اقتحامه لسفارة إسرائيلية أمر لم يحدث قط ، لا فى تاريخ المخابرات ، ولا حتى فى التاريخ السياسى كله ..

وأن هذا سيثير ضجة ما بعدها ضجة ..

ضجة قد تؤدى إلى فصله من جهاز المخابرات ..

وربما محاكمته أيضًا ..

وفى زمن الحرب ، سيكون العقاب حتمًا عنيفاً ..

بل شديد العنف والقسوة ..

ولكن هذا ا يهم ..

لقد ائتمنه (صبرى) على حياة ابنه ، وأقسم له هو على حمايتـه ورعايته ، حتى يشتد عوده ، ويلتحق بجهاز المخابرات المصرى ..

وهو يبر بقسمه دومًا ، ولا يحنث بوعده أبدًا ..

سيبذل ما بوسعه لإنقاذ (أدهم) ..

أيًا كان ما سيحدث ..

وأيًا كان السبب ..

فـ (أدهم) بالنسبة إليه ، وبعد مصرع (صبرى) بـالذات ، بمثابـة ابـن ..

ابن يستحق أن يدافع عنه بحياته ..

وهذا ما سيفعله ..

الآن ..

تحسَّس مسدسه ، وهو يقترب من مبنى السفارة ..

ويقترب ..

ويقترب ..

« مهلاً يا (حسن) .. »

انطلق ذلك الصوت الصارم من خلفه فجأة ، فالتفت إليه بحركة حادة ، تتناسب مع تلك الانفعالات ، التى يموج بها كيانه ، خاصـة وأن ذلك الصوت خاطبه باسمه ، باللغة العربية ..

وبحركة غريزية ، قبضت يده على مسدسه ، ولكنّ يدًا فولاذية أمسكت معصمه ، وذلك الصوت الصارم يتابع :

ـ خطأ .. ما تعلمناه يؤكّد أنه من كبير الخطأ أن يفقد رجل المخابرات أعصابه ، تحت أى مسمى .

حدّق (حسن) فى وجه صاحب الصوت ، وهو يقول فى توتر :

ـ (إبراهيم) ؟!.. كيف ...

قاطعه رئيس مكتب المخابرات المصرية فى (باريس) فى حزم :

ـ كيف عرفنا .. أليس كذلك ؟!.. لن أحاول إقناعك بأننا نعرف كل شىء ، كما يقولون فى أفلام السينما ، ولكن الملحق العسكرى للسفارة أجرى اتصاله بنا ، خشية ما ستقدم على فعله .

أجابه (حسن) فى توتر شديد :

ـ (إبراهيم) .. حاول أن تستوعب الأمر .. إنه ابن (صبرى) .. لقد سقط فى قبضتهم ، ولابد أن ..

قاطعه (إبراهيم) مرة أخرى فى حسم :

ـ ليست هذه هى الوسيلة .. أسلوبك قد يثير معركة حامية ، وقد يؤدى إلى قتال عنيف ، ينتهى بمصرعك ومصرع ابن (صبرى) .. هذه الأمور لا تحل على هذا النحو .

قال فى عصبية :

ـ على أى نحو إذن ؟!.. لو أننا انتظرنا قليلاً ، سيضعونه فى صندوق ، يحمل أختامًا دبلوماسية ، ويرسلونه إلى (إسرائيل) ، أمام سمعنا وبصرنا .

انعقد حاجبا (إبراهيم) ، وهو يقول :

ـ سنحاول أن نمنع حدوث هذا ، و ...

أوقفه فجأة دوى مكتوم لرصاصة ، انطلقت من مكان عميق ، داخل السفارة الإسرائيلية ، فانتفض (حسن) ، وقال :

ـ أرأيت .. إنهم يتقاتلون هناك .

كاد يندفع نحو السفارة ، لولا أن برز ثلاثة رجال فجأة ، وأطبقوا عليه ، وكبلوا حركته بقوة ، فهتف مقاوماً :

ـ لابد أن أعمل على حمايته .

أجابه (إبراهيم) فى صرامة :

ـ واجبى أن أحميه وأحميك ... من نفسك .

حاول (حسن) مرة أخرى مقاومة الرجال الثلاثة ، ولكنهم كانوا مدربين على ما يفعلونه ، فغمغم (إبراهيم) فى ضيق :

ـ سامحنى يا (حسن) .. إنها الأوامر .

شعر (حسن) باليأس والمرارة ، كما لم يشعر بهما من قبل ..

لقد فشل ..

فشل فى أن يحمى ابن (صبرى) كما وعد ..

فشل على الرغم منه ..

فشل ، و ...

قبل أن تتواتر أفكاره ، اتسعت عيناه فى دهشة ، وهو يحدّق فى آخر مشهد تصورّ حدوثه ، فى تلك اللحظات ..

مشهد (أدهم) الشاب ، وهو يقبض على عنق (جراهام) ، ويندفع معه خارج مبنى السفارة الإسرائيلية ، وهذا الأخير يهتف بصوت مختنق :

ـ لا .. لا يمكن أن يحدث هذا .. لا يمكن .

برز رجال أمن السفارة خلف (أدهم) ، وهو يصوّبون نحوه أسلحتهم ، ولكن هذا الأخير راح يتحرّك نحو بوّابة حديقة المبنى ، وهو يدور برهينته حول نفسه ، هاتفًا بالعبرية :

ـ رصاصاتكم ستصيبه قبل أن تصيبنى .

تردّد رجال الأمن ، على الرغم من صرخات (جراهام) :

ـ أطلقوا النار .. لا تتردّدوا .. أطلقوا النار .

ولكن الرجال تردّدوا بالفعل .

لقد خرج (أدهم) إلى حديقة السفارة ، وأصبح واضحًا لكل المحيطين بها ، وكل المارة فى الطرقات ، الذين توقفوا يتابعون ما يحدث فى دهشة ، وإطلاق النار ، فى ظل هذه الظروف ، أمر شديد الخطورة ، ويتجاوز كل القواعد ..

ولكن (أدهم) كان يقترب من بوّابة الحديقة ، ولو أمكنه عبورها ، سيخرج من أرض إسرائيلية ، وفقًا للقواعد الدبلوماسية ، إلى أرض فرنسية ، وسيفقدون السيطرة عليه .. تمامًا ..

الكل أدرك هذه الحقيقة ، حتى إن (حسن) هتف بكل انفعاله :

ـ هيا يا (أدهم) .. هيا .. اعبرها يا فتى .. افعلها بالله عليك .

ولسبب عجيب ، وربما بإشارة خفية من (إبراهيم) ، أفلت الأشداء الثلاثة (حسن) ، الذى اندفع نحو البوّابة ، فى نفس الوقت الذى كان حارسها فيه يصوّب سلاحه إلى (أدهم) ، فهوى (حسن) على فكه بلكمة كالقنبلة ، باغتت الرجل ، وألقته أرضًا فى عنف ، وغمغم أحد الأشداء الثلاثة فى عصبية :

ـ السيّد (حسن) اقتحم أرض السفارة .

غمغم (إبراهيم) :

ـ عجلة القدر تسير ، ولا أحد يمكنه اعتراض طريقها".

استدار (أدهم) الشاب فى هذه اللحظة ، ودفع جسد (جراهام) نحو رجال الأمن ، ثم استجمع كل ما تبقى له من قوة ، وانطلق يعدو نحو البوَّابة ، و(حسن) يعدو لملاقاته ، فرفع رجال الأمن الإسرائيليين مسدساتهم نحوه مرة أخرى ، وصوَّبوها بمنتهى الدقة ، فوثب (حسن) نحو (أدهم) ، هاتفًا :

ـ احترس .

وانطلقت رصاصة نحو (أدهم) مباشرة ، واستقبلها (حسن) بجسده ، وهو يدفع (أدهم) بقوة خارج حديقة السفارة ، وفى نفس اللحظة التى سقط فيها (حسن) مصابًا بالرصاصة ، سقط جسد (أدهم) خارج أرض السفارة ، وأشار (إبراهيم) إلى الأشداء الثلاثة ، هاتفًا :

ـ هيا .

اندفع الثلاثة نحو السفارة ، وحمل أحدهم (أدهم) ، فى حين اقتحم الآخران البوَّابة ، وجذبا جسد (حسن) خارجها ، ولكن (جراهام) انتزع مسدس أحد رجال الأمن ، واندفع به نحو البوَّابة ، هاتفًا :

ـ لن يفلت منى .. لن يفلت ، حتى لو تجاوزت كل قوانين الدنيا .

كان يصوِّب مسدسه فى إحكام نحو رأس (أدهم) ، عندما اعترض المفتش (آلان) طريقه فجأة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ جواز سفرك الدبلوماسى لن يعفيك هذه المرة يا سيد (جراهام) ، فهم على أرض فرنسية .

احتقن وجه (جراهام) بشدة ، ونقل بصره بين (آلان) ، والرجال الذين ينقلون (أدهم) و(حسن) إلى سيارة كبيرة ، تحمل أرقام دبلوماسية ، ثم لم يلبث أن خفض فوهة المسدس ، مغمغمًا :

ـ اللعبة لم تنته بعد أيها المفتش .. سنلتقى مرة أخرى .

ورمق (أدهم) بنظرة مقت ، مردفًا :

ـ كلنا سنلتقى .

غمغم (آلان) فى توتر :

ـ أتعشَّم هذا .

ثم التفت إلى (إبراهيم) ، الذى غمغم :

ـ يمكننى أن أفسر لك الأمر .

أشار (آلان) بيده ، قائلاً فى حزم :

ـ لست أريد أية تفسيرات .. جوازاتكم الدبلوماسية لا تمنحنى حق استجوابكم ، إلا بعد استئذان وزارة الخارجية ، ولست مستعدًا لإضاعة عمرى فى عمل روتينى أحمق كهذا .

وصمت لحظة ، ثم أردف فى خبث :

ـ خاصة لو أنكم غادرتم البلاد ، قبل الحصول على التصريح اللازم .

استوعب (إبراهيم) الرسالة ، وغمغم :

ـ فهمت .

وكان هذا توقيعًا على عقد نهاية العملية ..

وبداية بروز الأنياب ..

أنياب الأسد ..

* * *

« كيف حالهما الآن ؟!.. »

ألقى (قدرى) السؤال فى قلق شديد ، وهو يقف أمام حجرة العناية المركزة ، فى المستشفى التابع للمخابرات العامة ، فابتسم رجل المخابرات الواقف أمامه ، وقال فى هدوء :

ـ كلاهما بخير .. السيد (حسن) أجريت له جراحة ناجحة ، أنقذته من موت محقق ، وسيتعافى خلال أسبوعين على الأكثر .

تساءل (قدرى) فى لهفة :

ـ وماذا عن (أدهم) ؟!

صمت رجل المخابرات لحظات ، ثم قال :

ـ إنه بخير من الناحية الجسدية ، ولكنه مصاب بفقدان ذاكرة محدود ، يبدو أنه ناشىء عن تعرضه لتعذيب شديد ، تركَّز حول رأسه ومخه ، فهو لا يذكر بالتحديد ماذا حدث فى السفارة الإسرائيلية ، ولا كيف نجح فى الفرار منها ، ولكن معلوماتنا تقول : إن طبيب السفارة قد لقى مصرعه برصاصة طائشة فى قبوها ، و(أدهم) لا يذكر من استجوبه ، ولا كيف .. بل إنه ..

تردَّد رجل المخابرات لحظات عند هذه النقطة ، فسأله (قدرى) فى قلق :

ـ إنه ماذا ؟!

أجابه فى خفوت أسف :

ـ إنه لا يذكرك أيضًا يا (قدرى) .

صدم القول (قدرى) ، فغمغم فى هلع :

ـ لا يذكرنى أنا .

هزَّ رجل المخابرات رأسه ، وقال :

ـ الأطباء يقولون : إنه قد يستعيد وعيه قريبًا ، أو ربما خلال بضع سنوات ، ولكن يومًا ما سيذكرك حتمًا يا (قدرى) ، وسيذكر كل ما فعلته من أجله .

صمت (قدرى) بضع لحظات فى تأثُّر ، ثم قال فى خفوت :

ـ هذا لا يهم .. المهم أنه حى .. وبخير .

ربت رجل المخابرات على كتفه ، مغمغمًا :

ـ ونعم الصداقة .. صدقنى يا (قدرى) .. المخابرات فخورة بانضمامك إليها .

استدار إليه (قدرى) فى دهشة ، فتمتم مبتسمًا :

ـ نعم يا (قدرى) لقد أصبحت منضمًا إلينا رسميًا ، منذ هذا الصباح ، وسيحمل ملفك أوّل إنجاز لك .

غمغم (قدرى) :

ـ إنجاز ؟!

اتسعت ابتسامة رجل المخابرات ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد ، لقد ساهمت فى تحول أفضل أشبالنا إلى أسد .. أسد له أنياب حادة .. أنياب ستصنع يومًا جزءًا من هذا التاريخ .. تاريخ مصر .

لحظتها فقط شعر قدرى بالفخر ..

كل الفخر .

ليس فقط لأنه ساهم فى صنع تاريخ وطن ، ولكن أيضًا لأنه وضع بصمة فى بروز أنياب (أدهم صبرى) ..

أنياب الأسد ..

المصرى .

* * *

(تمت بحمد الله)





رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية
للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

د. نبيل فاروق

5 / 7 / 008

أنياب الأسد

- بعد مصرع والده ، شعر أدهم الشاب بغضب لم يشعر به فى حياته قط ..
- غضب دفعه إلى الإقدام على أعنف ما يمكن أن يخطر ببال شاب فى مثل عمره ..
- الانتقام .... وفى عمق قلب العدو ..
- الشبل قرر أن يتحول إلى أسد من أجل الانتقام ..
- وكان عليه أن يخوض أول وأخطر معاركه ..
- وأن تبرز أنيابه ومخالبه ..
- ترى هل يربح الشبل معركته ويفوز بانتقامه ، وهل تنبت للشبل تلك الأنياب ..
- أنياب الأسد ؟! ..

18



* اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل ... رجل المستحيل .



مطابع

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم